الرسالة الثانية والخمسون

الفتح الإسلامي لبلاد وادي السند

(٩٢ - ٩٦هـ / ٧١١ - ٧١٥م)

د. سعد محمد حذيفة الغامدي
قسم التاريخ - جامعة الملك سعود

حوليات كلية الآداب - الحولية التاسعة - ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

المؤلف

سعد بن محمد حذيفة الغامدي:
- أستاذ مشارك - قسم التاريخ بكلية الآداب - جامعة الملك سعود - الرياض - المملكة العربية السعودية.
- حصل على البكالوريوس من جامعة الرياض عام ١٣٩٣هـ.
- حصل على الدكتوراه من جامعة اكستر في بريطانيا عام ١٤٠٠هـ «قسم الدراسات الإسلامية».

من مؤلفاته:

(١) اطروحة الدكتوراه بعنوان «سقوط العباسيين ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م» باللغة الأنجليزية، لم تنشر.

(٢) سقوط الدولة العباسية، نشره المصنف نفسه عام ١٤٠١هـ.

(٣) أوضاع الدولة الإسلامية في المشرق الإسلامي، نشره المصنف نفسه عام ١٤٠١هـ.

(٤) حياة جنكيز خان، ترجمة من اللغة الإنجليزية إلى اللغة العربية، نشره المصنف نفسه ١٤٠٣هـ.

(٥) المغول والوحدانية «مجلة الدارة» العدد الأول، السنة التاسعة، شوال ١٤٠٣هـ.

(٦) مكان ومراسم وفن الخانات المغول خارج موطنهم الأصلي «مجلة كلية الآداب» جامعة الملك سعود، المجلد الحادي عشر، الجزء الأول ١٤٠٤هـ.

(٧) مكان ومراسم وفن الخانات المغول في منغوليا «مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية» جامعة الملك عبدالعزيز، جدة، المجلد الخامس ١٤٠٥هـ.

(٨) الملك الناصر يوسف والمغول «مجلة كلية الآداب» جامعة الاسكندرية، المجلد الرابع والثلاثون، ١٩٨٦م.

(٩) بطولة وفداء في ميافارقين «مجلة الدارة» العدد الأول، السنة الثانية عشرة ١٤٠٦هـ.

(١٠) معركة قطوان ٥٣٦/هـ/١١٤١م أسبابها ونتائجها، «مجلة العصور» المجلد الثاني، الجزء الأول، دار المريخ، لندن، جمادى الأولى ١٤٠٧هـ، يناير ١٩٨٧م.

محتوى البحث

ملخص

استطاع القادة الفاتحون المسلمون، أن يمدوا حدود الدولة الإسلامية شرقاً وغرباً حتى وصلوا بها إلى مشارف أراضي امبراطورية الصين في الشرق؛ وإلى الحدود الجنوبية الغربية للقارة الأوروبية غرباً وقد استغرقت فترة هذه الفتوحات الإسلامية جميع سنوات النصف الثاني من القرن الأول الهجري، والعقدين الأول والثاني من القرن الثاني للهجرة النبوية المشرفة (السابع والثامن للميلاد). لقد تطرق الباحثون، قديماً وحديثاً، لهذه الفتوحات، بطريقة أو بأخرى، وبنوع من التفصيل، في هذا المصدر أو ذاك المرجع ،من المصنفات العربية. إلا أنه مع ذلك، وكما يظهر لنا، فإن الفتوحات الإسلامية في تلك الفترة التي تتعلق بالأقليم الذي يعرف في معاجمنا الجغرافية، أو في كتب البلدانيين، بـ «بلاد الهند والسند» لم تدرس دراسة مستفيضة، بالمستوى نفسه الذي حظيت به الفتوحات الإسلامية الأخرى، وبخاصة من قبل مؤرخينا العرب المسلمين.

بناءً على ذلك، فقد بدا لي أن هناك ثغرة، فيما يتعلق بفتوحات المسلمين في «بلاد الهند والسند» في تلك الفترة، تحتاج إلى بعض الدراسة. لذلك، فإن هذا البحث محاولة جادة، وأرجو أن تكون موفقة، لسد تلك الثغرة، فيما يتعلق بفتوحات المسلمين وحملة محمد بن القاسم خاصة، في ذلك الصقع الغالي من بلاد المسلمين.

لقد بُذِلَ جهدٌ جهيدٌ، لاستقصاء المعلومات من مصادرها الأولى، ثم التعريف بالأماكن الجغرافية، التي ذكرت في مصادرنا العربية، بشكل عام وغامض، وفوقُ ذلك كله، تحديد تواريخ حملة محمد بن القاسم وأحداثها، واثبات تحركاته خلال فترة الحملة. لقد استخدم في هذا البحث مصادر فارسية وغير فارسية، معاصرة وحديثة على حد سواء، والتي، كما يبدو لي، لم تكن معروفة لكل من طرق هذا الموضوع من مؤرخي العرب المسلمين، وبخاصة المحدثين، وكلي أمل بأن يكون هذا البحث باكورة لسلسلة من البحوث المتتالية، فيما يتعلق بفتوحات

المسلمين ونشر الدين الإسلامي في ربوع «بلاد الهند والسند»، وما يتعلق بتاريخهم، وحضارتهم في ذلك الإقليم حتى عام ١٢٧٥هـ/ ١٥٥٨م أي إلى عشية الغزو البريطاني ل «شبه قارة الهند والسند».

تمهيـــد

بعث الله محمداً، ﷺ، إلى الناس كافة، بكتاب منزل، فصّلت آياته من لدن حكيم عليم، والدليل على بعثه ﷺ، آيات قرآنية تحويها سور في الكتاب، الذي لا يأتيه الباطل، حيث قال الله تعالى ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً . .﴾ وفي خلال القرن الأول لهجرته، ﷺ، وصلت دعوة الحق إلى حدود الصين شرقاً وإلى المحيط الأطلسي وجبال البرانس وجنوب فرنسا غرباً، حيث أوصلها الرجال الأشاوس، كخالد، وسعد، وأبي عبيدة، وعقبة، وموسى بن نصير، وقتيبة ومحمد ابن القاسم، فرضي الله عنهم أجمعين وأرضاهم، وأثابهم ثواب المجاهدين الصادقين. فقد كانوا رجالاً صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وما بدلوا تبديلا.

لقد بُحثت فتوحات أولئك القادة الغر الميامين، شرقاً وغرباً، بنوع من التفصيل، وبشكل أو بآخر، في مصادر ومراجع تاريخنا التي كتبت باللغة العربية. ومع ذلك فقد وجدت أن هناك ثغرةً كبيرة فيما يتعلق بفتوحاتهم في الأراضي التي عرّفها جغرافيونا ومؤرخونا بـ «بلاد الهند والسند»، لذلك عقدت العزم، متوكلاً على الله الحي الذي لا يموت، فكتبت هذا البحث المتواضع، لعله يكون باكورة لمجموعة من البحوث المتتالية، عن الفتوحات الإسلامية في «شبه قارة الهند والسند».

إن فتوحات محمد بن القاسم في «بلاد الهند والسند» لم تُطرق، لا في مصادرنا ولا في مراجعنا العربية إلا في شكل سرد لأحداث، في كلام عائم وعادي؛ فلم يورد هذا المصدر أو ذاك المرجع، تحديداً لأسماء مدن، أو أماكن، أو أسماء أشخاص مع شرح لهذه الشخصية، وأهميتها من عدمها. لذلك فقد فات، على ما يبدو لنا، على من كتب في هذا الموضوع في مصادرنا الإسلامية، التي كتبت باللغة الفارسية، والتي يكاد بعضها أن يكون معاصراً للأحداث، كمؤلف «شش نامة». إضافة إلى مصادر هامة أخرى، وردت في طيات بحثنا، في هذا الشأن، بالإضافة إلى أن مصادرنا ومراجعنا العربية، لا تكاد تضع تاريخاً محدداً لفتح هذه المدينة، أو نشر الإسلام

لتلك المنطقة، أو اقتحام قلعة معينة، وإنما يورد أصحابها كلاماً وسرد أحداث، دون تحديد لتواريخ أو لسنوات وقوعها. لذلك فقد حاولت، بجهد المقل، وبعد الاطلاع على مصادر ومراجع جديدة ذات صلة بالموضوع، أن أحدد مواقع المدن والقلاع، وأُعَرِّفُ أسماء الشخصيات الواردة في فتوحات محمد بن القاسم في «بلاد الهند والسند».

وحسبي أنني في رأيي قد أديت بعض الواجب تجاه أمر رأيت أن أنوه إليه، والله من وراء القصد، وهو يتولى الصالحين، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

مقدمة تاريخية وجغرافية

موقع «بلاد السند والهند» وحدودها:

عندما ننطق أو نسمع جملة «بلاد السند والهند» فإن تصور المرء وذهنه منا يتجهان إلى ما يعرف بـ «شبه القارة الهندية» أي إلى تلك الأراضي التي تتكون منها في الوقت الحاضر جمهوريتا «الهند، والباكستان»، اضافة إلى أراضي جمهورية «بنگلادش» والتي كانت ضمن الجمهورية الأخيرة. وكما نعرف جيداً فإن التقسيم الجغرافي، والسياسي الذي أضحت عليه بلاد «السند والهند» في الوقت الحاضر، وبهذه الصورة، لم يتم إلا على أيدي المستعبد البريطاني، عندما قام بتقسيم هاتيك البقاع بين المسلمين وغير المسلمين، عشية جلاء البريطانيين عن تلك الديار. إن ذلك التقسيم لهو أبعد ما يكون عن العدالة، فلم يخدم السكان عامة، والمسلمين بشكل خاص. وكلنا نعرف أن بريطانيا جلت عن «شبه القارة الهندية» أو بالأخرى «شبه القارة الهندية الباكستانية» The Indo - Pakistan subcontinent إن صح لنا التعبير، في عام ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧م. وبذلك استقل مواطنو «بلاد السند والهند» بشؤونهم عن المستعبد الإنجليزي، ولكن بعد أن قسمت أراضيهم بين المسلمين وغير المسلمين، بشكل عام، فأعطي المسلمون ما يعرف اليوم بـ «باكستان، وبنگلادش». وهذه، على ما يبدو لنا، سياسة حاقدة، من البريطانيين، على الإسلام والمسلمين، ففرقت شملهم، وهدرت طاقاتهم، واعادت أكثر من ثلاثة أرباع مساحة «شبه القارة الهندية الباكستانية» لغير المسلمين، وبذلك حصرت مسلميها في مساحة تقل عن ثلث المساحة العامة لهذه البلاد الواسعة، والقارية الاتساع. وبالرغم من هذا، فلم تكتف بذلك التقسيم الجائر، بل جعلت المسلمين قسمين عرفا إلى عهد قريب بـ «باكستان الشرقية والغربية». وفي عام ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م انفصل الشطر الشرقي عن نظيره الغربي، وأضحى الأول يعرف الآن بـ «جمهورية بنگلادش الإسلامية» والثاني بـ «جمهورية باكستان الإسلامية» وهذا وذاك خارجان عن نطاق بحثنا هذا.

أما موقع شبه هذه القارة، فإنه يحتل القسم الجنوبي من قارة آسيا، وهي أكبر قارات العالم المسكونة، كما نعرف؛ وتقع بين درجات الطول والعرض التقريبية التالية، حيث تحدها درجتا الطول من الشرق والغرب على التوالي، ٩٧ و ٦٠، ودرجتا الغرب، من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب على التوالي، ٣٦½ و ٨ـ كما تحدها من الشمال أراضي نيبال، وجمهورية الصين الشعبية، ومن الجنوب خليج البنغال وجزر سرنديب (سيلان أو سيريلنكا) والبحر العربي، ومن الشرق بورما، ومن الغرب أراضي أفغانستان، وايران.

أما ما يتعلق بحدود أراضي «وادي نهر السند[1]»، وهي ما فتحه العرب المسلمون، في العهد الذي عرف بـ «عصر الفتوحات الإسلامية» فإن ما عرف به سابقاً يختلف عما هو معروف به في الوقت الحاضر[2]. فإذا كانت مقاطعة السند الحالية لا تشمل سوى أراضي وادى نهر السند السفلى، فإن هذا الأمر يختلف تماماً عنه في السابق، أيام فتح المسلمين لهاتيك الربوع[3]. فأراضي «وادي السند»، أيام الفتح الإسلامي، تشمل مقاطعات ثلاث، هي: السند، والپنجاب، والحدود الشمالية الغربية في الباكستان، طبقاً لما أوردته مصادرنا التاريخية الإسلامية الأولى، وكذلك بعض كتب المعاجم الجغرافية الإسلامية، وما يفهم من بعضها الآخر[4].

سكان الهند والسند

لم يسعفني الحظ، لا من خلال قراءاتي البسيطة، ولا من خلال سفراتي القليلة، أن أطلع على معلومات تشير إلى أن أحداً من سكان «شبه قارة الهند والسند»، قد هجر موطنه إلى غيره من المواطن أو الأقاليم الأخرى البعيدة في شكل جماعات، بل على العكس فإننا نجد أن الهجرات كانت تأتي من الخارج إلى «أراضي الهند والسند».

فعلى الرغم من أن شبه القارة هذه تكاد تكون محاطة بالمياه من جهاتها الثلاث(*)، إلا أن الهجرات البشرية كانت تأتي إليها، منذ مئات السنين قبل الهجرة النبوية الشريفة، إلى العصر الحديث، عن طريق البر، وخاصة من الشمال، والشمال الغربي، كذلك كانت تأتيها من البحر، وخاصة من قدم إليها عن طريق البحر العربي، من جهاتها الغربية.

وقد جاءت هاتيك الهجرات إلى «الهند والسند» لسبب أو لآخر، وبشكل خاص في حملات عسكرية؛ فاستوطن المهاجرون أرضها، وتزوجوا من نسائها، وامتزجوا بالسكان المحليين والسابقين لهم في الهجرة إلى هذه الأراضي، فأصبحوا جزءاً لا يتجزأ منهم. وبذلك أضحى السكان فيها مزيجاً يحوي أخلاطاً كثيرة من البشر، بالرغم من أن غالبيتهم من سكان أواسط آسيا، وكذلك من أوروبا، متعددو الأديان، كثيرو اللهجات، متباينو الأصول والموطن.

كان أغلب القادمين إلى أراضي «الهند والسند» يأتون، منذ أكثر من أربعة آلاف وخمسمائة سنة قبل الهجرة النبوية الشريفة (أربعة آلاف سنة ونيف قبل الميلاد) في شكل جماعي، إما في صورة حملات عسكرية، أو في هيئة جماعات مستوطنة سلمياً، حيث تبدأ تستوطن الجهات الشمالية البعيدة في سهول شمال شرق ايران، ومرتفعات افغانستان الحاليتين، ثم تتدرج في انحدارها شيئاً فشيئاً إلى الأعماق الداخلية من الجهات الجنوبية، والجنوبية الشرقية، والجنوبية الغربية.

بناءً على ذلك، نجد أن سكان شبه قارة «الهند والسند» أضحوا مزيجاً من سكان قارة آسيا، فهناك الجنس الصيني المغولي، والممتزجون بالعنصر التركي، والايراني التركي، والتركي الذي دخل من جهاتها الغربية، والذي اختلط مع العنصر البشري الذي يقطن أطراف قارة أوروبا من جهاتها الشرقية، ثم يجب ألا ننسى العنصر العربي، الذي قدم من الغرب والجنوب الغربي، فأصبح لدينا عنصر عرف، مع كثير من التجاوزات، بمصطلح «العنصر الآري»، وإن كان هذا الاسم غالباً يطلق على العناصر البشرية التي كانت تهاجر، من وقت إلى آخر، إلى «بلاد السند والهند» قادمة من أواسط قارة آسيا. وبذلك أضحى سكان «السند والهند» مزيجاً من البشر، عرف هذا المزيج بعنصر جديد هو «الهندي الآري - Indo Aryans».

على الرغم مما ذكر أعلاه فإن الأستاذ الدكتور نترجن Prof: Natarajan يقول بأنه لا يُعْلَم بالتحديد أين الموطن الأصلي للآريين، وإن ما يورده المؤرخون، في هذا الخصوص ما هو إلا أمر خلافي، ولا يمكن، بأي حال من الأحوال، الوصول معه إلى نتيجة محددة. ومع ذلك فإنه يصل إلى النتيجة المعروفة من أن «الآريين» قوم خارجيون، جاؤوا إلى «الهند والسند»[٦]. أما سيد لطيف، فقد حدد الموطن الأصلي للآريين بأنه مناطق وسط قارة آسيا، هاجروا إلى الأقطار شرقاً وغرباً، وعبرت إحدى فرقهم المهاجرة إلى «شبه قارة الهند والسند» من خلال ممر خيبر، في كابل؛ كما حدد أول مستوطنة لهم بأنها «برهمان فرته Brahman Varta»[٧].

أما فترة هجرات الآريين القادمة من الشمال إلى أرض «الهند والسند» فقد حددت بالفترة المعروفة بـ «العصر الفيدي» أو «الفترة الفيدية» أي ما بين عامي ٢٦٢٢ - ١٢٠٠ ق. هـ/ ٢٠٠٠ - ٦٠٠ق. م.[٨]. ثم تلاها هجرات من الشمال أيضاً، عرفت باسم «السيثيون» وهم أصل العناصر الطورانية، وذلك في الفترة التالية، أي ما بين عامي ١٢٠٠ - ٩٤٩ق. هـ/ ٦٠٠ - ٣٢٧ق. م وقد قيل بأن هؤلاء الأقوام هم أصل «الجات» أحد عناصر سكان «شبه القارة الهندية السندية» حاليا[٩]. ومهما يكن الأمر، فقد كانت ممرات جبال هندوكُش، الشاهقة، هي المعبر الرئيسي لتلك الهجرات، وخاصة تلك القادمة من أواسط وغرب آسيا بشكل خاص منذ العصور القديمة، إما في مجموعات سلمية، وإما في شكل حملات عسكرية، كما

قلنا آنفاً، وهذه الأخيرة هي الظاهرة من تلك الهجرات، كما كانت عليه هجمات أقوام أواسط آسيا السابقة الذكر[١٠].

من الحملات العسكرية القديمة، والتي تعرضت لها أراضي «الهند والسند»، حملة الاسكندر المقدوني في حوالي عام ٩٤٩ق. هـ/ ٣٢٧ق.م، وقد قدمت هذه الحملة إلى أراضي إيران، وذلك بعد أن اكتسح الاسكندر المقدوني أراضي امبراطورية داريوس[١١]. ومع ذلك، وكما يبدو لنا، لم يكن لتلك الحملة آثار كبيرة، كغيرها، على مجتمع «الهند والسند»، في نواحي حياته السياسية والثقافية والاجتماعية. فيظهر لنا أنه كما جاء الاسكندر بقضه وقضيضه، بسرعة واستمر في عملياته العسكرية ضد أراضي شبه تلك القارة، من الجهات الشمالية ثم انحداره مع مجرى «نهر السند» جنوباً، قرابة سنتين، فقد غادرها بالسرعة التي قدم بها، وهي على حالها نفسه الذي كانت عليه. فقد رفض جنود الاسكندر، التقدم إلى ما وراء «نهر السند»، رفضاً قاطعاً، وألقوا أسلحتهم، وآثروا العودة إلى ديارهم في شرق أوروبا. ولذلك فقد انحدر بقواته بمحاذاة «نهر السند»، حتى وصل إلى مصبه، في البحر العربي، وغادر أرض «الهند والسند» في فرقتين، بحرية، ركبت البحر العربي ثم الخليج إلى العراق، وأخرى سارت بمحاذاة الساحل الايراني[١٢].

بعد حملة الاسكندر جاءت موجات طورانية أخر من الشمال، خلال الفترة ما بين عامي ٧٢٢ ـ ٥٢٢ ق. هـ/ ١٠٠ ق.م ـ ١٠٠ ميلادي، غازية شمال «الهند والسند» وخاصة شمال الاقليم الأخير، وهو ما يعرف اليوم بـ «ولاية البنجاب» في الباكستان. ومع ذلك فقد استطاع السكان المحليون طردهم منها، ولكن لفترة، ولو أنها ليست بالقصيرة، إلا أنهم عادوا بعدها فاحتلوا البلاد خلال الفترة بين عامي ٣٢٢ ـ ٢٢٢ق. هـ/ القرنين ٣ و ٤ الميلاديين، عندما هاجم أكاسرة الفرس المنطقة، ثم جاءت بعدهم قبائل الهون البيض، ثم الفرس، الذين كان أكاسرتهم يغزون هذه الأراضي كلما اطمأنوا إلى أمن امبراطوريتهم من الغرب. ثم جاءت فترة الفتح الاسلامي، خلال مراحله التاريخية المعروفة[١٣]. وقد ظل المسلمون يحكمون في أراضي «الهند والسند» إلى أن جاء المستعبد البريطاني فقضى على حكمهم بها، وظل يحكمهم من عام ١٢٧٥هـ/ ١٨٥٧م إلى عام ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧م. حيث كان عنصرا جديدا كغيره من العناصر الأخرى الوافدة إلى «بلاد الهند والسند».

لغة أهل الهند والسند

كانت اللغة التي يتكلم بها ساكنو «شبه قارة الهند والسند» هي «اللغة السنسكريتية»، وهي، كما نعلم، المصدر الرئيسي للغات الشعوب الأوروبية، وشعوب جنوب وجنوب شرق آسيا، ثم جاءت لغات أخر، مع هجرات جديدة من الشمال والغرب، مثل العربية والفارسية القديمة والحديثة والأردية، والأوروبية كالبرتغالية والانجليزية. بناءً على ذلك، فقد تشعبت، مع مر الزمن، من هذه اللغات، لغات متعددة، حتى أصبح في «الهند والسند» في الوقت الحاضر، قرابة خمس عشرة لغة، معترف بها رسمياً، ومئات من اللغات القومية، وأعداد لا تكاد تحصى من اللهجات المحلية، لدرجة أصبح المرء من الشمال أو من الجنوب أو من الشرق أو من الغرب، يذهب إلى جزء آخر فيجد نفسه غريباً، ليس في لغته، بل وفي مجتمعه، وملبسه، ومطعمه. وهذا الأمر شاهدته في آخر سفرة لي إلى هاتيك الأراضي العجيبة الأطوار، وذات الأمور الغريبة[١٤].

المعتقد الديني لأهل «الهند والسند»

إذا كانت لغات أهل «الهند والسند» متعددة، كما رأينا أعلاه، فإن المعتقدات الدينية، المنتشرة في أوساط سكان هاتيك البلاد، هي الأخرى كثيرة. ومع ذلك فإن أهم ما يدين به السكان هناك الإسلام، والبرهمانية الهندوسية، والبوذية، واليانية، والزرادشتية، والمسيحية، وديانة السيخ، إلى جانب معتقدات دينية قبلية ومحلية أخرى غير هذه[١٥].

فالدين الإسلامي حمل إلى «الهند والسند» من قبل عنصرين أساسيين، هما العنصر العربي، وقائده محمد بن القاسم. إلى جانب أناس من التجار والقادة المسلمين، خلال القرنين الأول والثاني الهجريين/ الثامن والتاسع الميلاديين؛ والعنصر الثاني هو العنصر التركي، وقائدهم سبكتكين وابنه محمود الغزنويين، وتلاهما أبناؤهما وأحفادهما؛ ثم الغوريون، إلى أن بلغ زخم ذلك الفتح أيام الأباطرة المغول[١٦].

أما الهندوسية البراهمية، فقد سبق أن ذكرنا فترتهم، التي سيطروا فيها، حيث كانت لهم الغلبة بين عام ٢٦٢٢ق. هـ/ ٢٠٠٠ ق.م ووقت مجيء الديانة البوذية، التي أسسها بوذا، وقد اتخذت من مدينة «بنارس» مدينتها المقدسة[١٧].

أما البوذية، فقد ولد مؤسسها من إحدى الأسر القبلية الآرية، في حدود سنة ١٢٢٢ق. هـ/ ٦٢٢ق.م، واسمه «گوتمة Goatama» ولعل أكثر الأديان اتباعاً، في جنوب شرق آسيا بشكل عام، بما في ذلك «شبه قارة الهند والسند»، هم أتباع الديانة البوذية، حتى إنه ليقال بأن خمس سكان العالم يدينون بالديانة البوذية[١٨].

أما الديانة اليانية، التي جاءت بعد البوذية، فإن مبدأها محاولة الربط بين الإنسان والأرض، أي أنها تعالج العلاقة بين الإنسان والعالم المحيط به. فالمطلع على أسس هذه الديانة ومبادئها، كغيرها من الديانات الوثنية، يجد أنها قريبة الشبه بالبوذية، حتى أنها لتعتبر، لأول نظرة فيها، جزءاً منها. ومع ذلك فهي ليست بوذية، رغماً عن التشابه الكبير بينهما في بعض الطقوس. وهذه الديانة ما تزال حية تتبع، كدين رئيسي في أرضها التي نبعت منها في الأصل، وبعكسها البوذية، فما زالت اليانية تتمتع بتأثير قوي على قسم كبير في أوساط السكان في «شبه قارة الهند والسند» عامة، وخاصة الأقاليم الغربية، وبالذات في أقليم الگجرات بالهند[١٩].

أما الديانة «الزرادشتية» فهي ديانة الفرس، التي كانت مهيمنة على شعوب الامبراطورية الفارسية من حدود «نهر السند» شرقاً إلى البحر المتوسط غرباً، ومن وراء جبال القوقاس شمالاً إلى البحر العربي جنوباً، إلا أنها في الوقت الحاضر، لم تعد ديانة تذكر، مع أنه ما يزال لها أتباع في إيران الحالية، بشكل قليل جداً، لا يكاد يذكر؛ كما يوجد لها أتباع في أقصى الشاطيء الغربي لشبه تلك القارة، وبالذات قرب مدينة بومبي الحالية في أقليم «مهرشتره Maharashtra» بالهند[٢٠].

أما ديانة السيخ فهي ديانة حديثة ظهرت على مسرح حياة ساكني شبه قارة «الهند والسند» في القرن التاسع الهجري/ ١٥م. وتتركز كثافة أتباع هذه الديانة في إقليمي راجستان والپنجاب الهنديين، ومركز ديانتهم في مدينة «أمريتسر Amritsar» في الإقليم الأخير على الحدود، تقريباً، مع دولة الباكستان الإسلامية. وقد أسس هذا الدين شخص يدعى «ننك Nanak» وهو أحد مصلحي الديانة الهندوسية[٢١].

العلاقة بين جزيرة العرب و «بلاد الهند والسند»

إن مجرد نظرة خاطفة يمكن معها الاستدلال على مدى قصر المسافة البحرية التي تفصل بين السواحل الشرقية والجنوبية الشرقية لشبه الجزيرة العربية وبين شواطىء «شبه قارة الهند والسند» من جهاتها الجنوبية الغربية والغربية معاً. بناءً على ذلك القرب لا يستغرب المرء وجود صلات قوية، كانت تربط بين ساكني الجهتين الساحليتين، الشرقية والغربية للبحر العربي، وخاصة من الناحية التجارية، على مدّ العصور، منذ أقدم الحقب التاريخية.

فمن المعروف أن أراضي «شبه قارة الهند والسند» مشهورة بانتاج الكثير من الحاجيات النادرة، والتي يكثر الطلب عليها في بلدان كثيرة، كتلك التي تقع في جنوب غرب آسيا، وشمال أفريقيا، وشرق وجنوب قارة أوروبا. ولعل التوابل والعطور وخشب الصندل والعاج والكافور من أهم المنتوجات لشبه القاره تلك، ولا ننسى الأسلحة، ولعل السيوف الهندية من أهمها، هذا بالإضافة إلى ما تجلبه السفن من جنوب شرق آسيا، وخاصة المنتوجات الحريرية، من الصين. وقد كان لهذه الأصناف، وغيرها رواج تجاري، لا يفتر الطلب عليها من ساكني تلك الأقطار، بل ويزيد سنة بعد أخرى، على مر العصور وتعاقب الأزمان. هذا بالإضافة إلى أن تلك السفن كانت تعود إلى «الهند والسند» محملة بأنواع من البضائع كالتمور والزجاج والبلور وغيرها.

كان في أيدي التجار العرب، بشكل خاص، بحكم موقعهم المتميز بين بلدين مختلفين، بلد منتج وآخر مستهلك، أغلب التجارة المتبادلة بين الطرفين. فقد كانت سفن بحارتهم تنقل ما تنتجه أراضي «الهند والسند» وتمخر بها عباب المحيط الهندي، والبحر العربي، فترسو بها إما في الموانئ الجنوبية لشبه الجزيرة العربية، وإما في موانىء الجهة الشرقية منها؛ ومن هاتيك الموانئ تحمل البضائع إلى أراضي بلاد الشام، ومنها إلى مصر، وإلى جنوب أوروبا حيث سوقها الاستهلاكي، ثم يجب أن لا ننسى جزر المحيط الهندي (كجزيرة سرنديب وهي سيلان، وجزر جمهورية المالديف) التي لم تكن أقل من «بلاد الهند والسند» اتصالاً بالجزيرة العربية وما أورده

ابن بطوطه في رحلته، ليس إلا صورة مصغرة لتلك العلاقات السحيقة العهد بين سكانها والبلاد الغربية والشمالية الغربية، المذكورة أعلاه[٢٢].

إضافة إلى الروابط التجارية، كان هناك روابط دينية تربط سكان «الهند والسند» بالجزيرة العربية على وجه الخصوص. فيوجد اشارات عابرة، في مصادر مادتنا، إلى أن سكان «الهند والسند» «وسرنديب» كانوا يذهبون إلى مكة ليقدموا القرابين لمعبوداتهم، ويتقربون إلى الأصنام بها[٢٣].

استمر الوضع على حالته تلك، من الناحيتين التجارية والدينية حتى جاء الإسلام، وبُعِثَ محمدٌ (ﷺ) في الجزيرة العربية، فزاد من ذلك، لدرجة أن تجاراً من سكان الجزيرة العربية نقلوا معهم الإسلام إلى «جزر الملديف وسيلان»، فهاجر إليها أناس، واستوطنوا هاتيك الجزر، وتزوجوا من نسائها. كذلك نجد الإسلام يمتد إلى «شبه قارة الهند والسند» فيصل، أول ما يصل، إلى إقليم الگجرات، وكتش، وخاصة على سواحل هذه المناطق الغربية، وخير برهان على ذلك أن المساجد والمستوطنات الإسلامية وجدت في هاتيك الأصقاع، على سواحل الدكن وملبار، حتى قبل أن يصل الفتح الإسلامي إلى «بلاد السند»، على يد محمد بن القاسم الثقفي. ولعل السبب في هذا، بدون شك، هو وجود صلات وروابط قديمة جداً، ومصالح متبادلة ربطت بين ساكني شواطئ البحر العربي الشرقية والغربية، فوصلت معها ثقة بعضهم في بعض، لدرجة سمح فيها حكام هاتيك البقاع للمسلمين ليس بنشر الدين الإسلامي والدعوة له، بين مواطنيهم، وممارسة شعائر دينهم بحرية تامة فحسب، بل وسمحوا لهم بأن يقيموا مستوطنات وذلك بوجه الخصوص في الدكن والگجرات[٢٤].

أما «جزر الملديف، وسيلان» فقد كانت من أولى بلدان جنوب قارة آسيا التي سكنها العرب واستقروا بها، حتى من قبل البعثة النبوية، كما سبق ذكر ذلك، وهذا يعود، كما قلنا، للعلاقات الطيبة بين سكان البلدان المعنية هنا. لهذا، فلا يجب أن نندهش عندما نسمع أن حكام تلك الجزر كانوا يرسلون يتامى وأرامل المسلمين العرب وأراملهم، الذين كانت تنزل بهم مصيبة الموت، وهم بهاتيك الجزر، إلى بلادهم في الجزيرة العربية، وهم مصحوبون بهدايا، وتحف، وخطابات تعبر عن

روح الود والصداقة التي يكنها هذا الحاكم، أو ذاك الأمير، لهذه الجزيرة أو تلك، تجاه خليفة المسلمين، وأمير الولايات الشرقية للخلافة الإسلامية. وفوق ذلك ما يلقاه مواطنوه المسلمون في جزيرته، من اعزاز واكرام، في ظل حكمه. وسيرد معنا ذكر شيء من هذه العلاقة الطيبة - إن شاء الله[٢٥].

كان الوضع في «بلاد وادي نهر السند» يختلف تمام الاختلاف، على ما يبدو لنا، في علاقته بسكان السواحل الشرقية للجزيرة العربية، عما شاهدناه في الأقاليم الجنوبية الغربية لشبه «قارة الهند والسند». فلم نجد اشارات تدل على أن العرب كانت لهم صلات تجارية قوية، كتلك التي شاهدناها إلى الجنوب من مصب «نهر السند». ربما كان السبب عدم وجود أمن ملاحي قرب سواحل «مقاطعة السند»، حيث نجد قراصنة يقومون بالترصد للسفن التجارية التي تقترب من سواحل موانئها، فيستولون على ما تحمله، ويقتلون ويسرقون ركابها. ويعزو أحد مؤرخي بلاد «الهند والسند» في الوقت الحاضر ذلك، إلى أن حكام ذلك الوادي كانوا شديدي الكره والعداء للأجانب[٢٦]. ومع ذلك فالذي يظهر لنا هو أن بعض سكان ذلك الوادي كانوا يسعون وراء الربح الذي لا يلكفهم عناء، سوى ارسال قراصنتهم، لترصد سفن التجار العرب وسلبها، لذلك فمن الطبيعي ألّا نجد هناك علاقة ود ومحبة وتجارة على المستوى نفسه لموانئ البحر العربي الجنوبية الشرقية، تربط بين حكام «وادي السند» ومواطنيهم، وخاصة الجنوبيين منهم، وبين العرب. لذلك سنجد أن سطو قراصنة حاكم السند «داهر» كان السبب الرئيسي الذي عجل بفتح هاتيك البقاع وادخال أهلها في الإسلام.

وبرغم ذلك، فيجب ألا نمر على مسألة «كره أهل السند للأجانب» دون مناقشتها، فلا بد أن يكون لها أسباب، وإلا لما جاء بها أولئك المؤرخون. إذن، ما هي أسباب هذا العداء من جانب حكام السند وأهله تجاه الأجانب، بعكس إخوانهم وبني قومهم الهنود، إلى الجنوب، وما كان يكنه هؤلاء من تقدير وإكرام للعرب؟

لعل السبب، كما يظهر لنا، يعود إلى عوامل خارجية، كانت مفروضة على أهل «وادي نهر السند»، من قبل جيرانهم، وخاصة من جانب الفرس، الإيرانيين،

وذلك بحكم موقع «وادي السند» القريب من مملكة إيران الفارسية، وبعد مناطق الهند الأخرى وما كان يقوم به أكاسرة الفرس من عدوان عليهم، الأمر الذي يجبر الكثير من سكان «السند» إلى الهجرة إلى خارج هذا البلد هرباً، إما إلى الجنوب أو إلى الشمال من أرض «السند»، كلما أحسوا بالخطر الأجنبي. إن هذا الأمر هو ما أمكننا استنتاجه من رواية جاء بها أبو الريحان البيروني، وذلك في معرض كلامه عن أسباب كره الهندوس للأجانب، وذلك أن كسرى الفرس، الذي أصبح يعتنق الديانة «الزرادشتية»، شرع في العمل على فرضها بالقوة على جميع ساكني امبراطوريته، إما بالقوة وإما بالمعاهدات[٢٧]. لذلك فقد اضطر الكثير من سكان بلاد وادي «نهر السند» المسالمين بطبيعتهم، إلى الهجرة، فراراً بدينهم، وخاصة البوذيين، إلى خارج وطنهم. ومنذ ذلك الوقت أضحى أهل السند يكنون كرهاً ومقتاً شديدين تجاه أقاليم خراسان (إيران)[٢٨]. وما يؤيد هذا ما شاهدناه سابقاً، من أن إقليم وادي «نهر السند»، كان هو الذي يتعرض، على الدوام، لهجمات القوى الخارجية، وخاصة الشمال منه، حيث كان الآريون والطورانيون، والإسكندر المقدوني وغيرهم، قد جاءوا مهاجمين لسكان هذا الوادي، لموقعه القريب من إيران، كل ذلك بعكس التجار العرب، الذين كانوا يأتون إلى بلاد الهند وجزر المحيط الهادي والبحر العربي، مسالمين، لا يؤذون سكان هاتيك الربوع. فربما كان هذا سبب الاختلاف. لذلك، فلا غرابة أن نجد أهل السند يكرهون الأجانب، أيا كانوا، فرساً أم عرباً، أم غيرهم.

لعل الذي خلق ذلك الكره، في قلوب سكان وادي السند، لكل ما هو أجنبي، هو حكام الوادي من الهندوسيين، الذين يميلون بطبعهم إلى العنف، بعكس أتباع الديانة البوذية، الذين يكرهون العنف، والحرب والقتل، ويميلون إلى السلم والاستسلام بطبعهم، لمن يحكمهم، أو يغزو أرضهم. وسنشاهد - فيما بعد - أنهم يستقبلون جيش المسلمين بالغناء، والرقص، والاحتفال، وخاصة بعد القضاء على قوة الهندوس، التي كانت جاثمة عليهم. لذلك تغيرت نظرة سكان «وادي السند». وخاصة تجاه الإسلام والمسلمين، بعد الفتح الإسلامي، تحت مبدأ الآية الكريمة ﴿. . . لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي . . .﴾ الآية[٢٩]. فأقبل الأهلون يدخلون في هذا الدين أفواجاً؛ كما سيرد معنا ذكر ذلك.

لهذا، نجد أن الحكام الهندوس يفرضون على سكان وادي السند كره الأجانب، فأضحوا أعداءً لكل أجنبي؛ فلم يسمحوا، على ما يظهر لنا، للتجار الأجانب بالاقتراب منهم، ما لم يطمئنوا لجانبهم، وهذا أمر ربما كان السبب وراء السطو على سفن العرب المسلمين، في أواخر القرن الأول الهجري/ الثامن الميلادي. فربما كان حاكم «السند» وراء ذلك خوفاً من مجيء الدين الإسلامي إليهم، وفرضه عليه بالقوة، كما فعل كسرى فارس، الآنف الذكر.

في أوائل العقد الأخير من القرن الهجري/ أواخر العقد الأول من القرن الثامن الميلادي، هاجمت مجموعة من قراصنة الهندوس سفناً تجارية للمسلمين، في مياه البحر العربي، على ما يبدو لنا، بعد أن جرفتها الرياح إلى الشواطيء القريبة من ساحل أراضي وادى السند الجنوبية، فأخذت السفن إلى ميناء عرفه الجغرافيون والمؤرخون باسم دِبُل Debul، ويقع، على ما أظن، بالقرب من مدينة كراتشي الحالية في أراضي جمهورية باكستان الإسلامية(٣٠). وهناك قام أولئك القراصنة بنهب الأموال، وقتل الرجال، وأسر النساء واسترقاق الأطفال، حيث حظي هذا العمل برضى وارتياح، وربما كان بتحريض، من قبل حاكم «السند» آنذاك(٣١). وربما قام بالترتيب لهذا العمل لكي يرهب الأجانب من الاقتراب من أرضه، على الرغم من ادعائه فيما بعد بأنه لا يملك أية سلطة على أولئك القراصنة، عندما طلب تسليم الأسرى من المسلمين، ورد أموالهم، كما سيرد معنا في ثنايا هذا البحث(٣٢). وهنا نرى لزاما علينا أن نعطي القارىء والباحث الكريمين نبذة تاريخية شديدة الاختصار عن أسرة هذا الحاكم الهندوسي، في بلاد وادي السند، عشية الفتح الإسلامي لها.

بلاد السند عشية الفتح الإسلامي

كانت يحكم ذلك الوادي أسرة بوذية الديانة عرفت بـ «أسرة رائي» وقد أسسها رجل يدعى «ديوايج Dewaij»[٣٣]. وكان لـ «سيهاسي الثاني Sehasi II»، آخر ملوك هذه الأسرة، وزير يدين بالديانة الهندوسية، من البراهمية المتطرفين، هو الملك چش بن سلايج (١-٤٦هـ/ ٦٣٢ - ٦٦٦م)[٣٤]. دخل هذا الوزير في نوع من التفاهم التآمري، بعد أن توفي ذلك الملك، مع زوجة الأخير «سنها - دڤي Senha Devi»[٣٥]. ليستولي على الحكم. بناءً على ذلك التفاهم اعتلى هذا الوزير عرش «وادي السند» ولذلك فقد أصبح حكام السكان في ذلك الوادي يدينون بغير ديانة أغلب شعبه، وفرضت حكمها عليهم بالحديد والنار.

ظل هذا الملك يحكم قرابة ست وأربعين سنة، (١ - ٤٦هـ/ ٦٢٢ - ٦٦٦)[٣٦]. ثم خلفه أخوه ويدعى «راجا چند بن سلايج» حيث دام حكمه قرابة أربع سنوات، (٤٦ - ٤٩هـ/ ٦٦٦ - ٦٦٩م[٣٧]. ثم جاء «داهر بن چش بن سلايج». آخر الحكام الهندوسيين، وحكم قرابة خمس وخمسين سنة تقريباً (٤٩ - ٩٤هـ/ ٦٦٩ - ٧١٢م)[٣٨].

تقول الروايات التي بين أيدينا إن أولئك الملوك الهندوس كانوا يشعرون بالتعالي الطبقي على الشعب، الذي يكون الأغلبية فيه الجات والميد والكركيون وقبائل الويرسي والشدة، وهم جميعاً من معتنقي الديانة البوذية[٣٩]. وهنا فرضوا عليهم الضرائب الباهظة، وسنوا قوانين وقيوداً جائرة، لتسيير حياتهم اليومية العامة. كان من تلك القيود، على سبيل المثال، أن حُرِّم عليهم حمل أي نوع من السلاح، أو ارتداء الملابس الحريرية؛ كما أجبروا على أن لا يركبوا الخيول بسروجها، وأن لا ينتعلوا أحذية، بل يسيروا حفاة الأقدام، وأن لايضعوا شيئاً من اللباس على رؤوسهم، بل يسيروا حاسري الرؤوس. وقد نقل «پاثان» في ص١٧٠، خطأً، حيث نسب هذه القوانين الجائرة والأعمال القبيحة إلى المسلمين، مدعياً بأن محمد بن القاسم، بعد فتح «السند» استمر في فرضها على سكان «وادي السند»[٤٠].

لا يمكن ان نستبعد بأن تكون سياسة الحكام الهندوس عدم ترك الفرصة لمواطنيهم البوذيين للاتصال بأي شعب أجنبي، ولكي يظلوا مستعبدين تحت حكم الطبقة الحاكمة من البراهميين. ولذلك قد يكون أشيع عن سكان وادي نهر السند بأنهم يكرهون الأجانب، وربما أن الروايات التاريخية، حول ما لقيه المسلمون من رحابة الصدر، والحب والتقدير، من جانب سكان وادي ذلك النهر، عشية مقدم جيشهم لفتحها، خير ما يمكننا تدوينه هنا لإثبات هذه الناحية. وكل الشواهد والروايات التاريخية تثبت، إلى حد كبير، أن ساكني ذلك الوادي، بعد مقتل «داهر» وانتهاء حكم أسرته الهندوسية البغيضة والمغتصبة لعرش بلادهم، استقبلوا المسلمين العرب أحسن استقبال، والفرحة والبشر على وجههم، كما سنشاهد ذلك في هذا البحث[41].

الإسلام يدخل وادي نهر السند

دواعي الفتح الإسلامي «لبلاد السند»:

إن مسألة فتح «بلاد وادي السند» أمر مفروغ منه، مهما قيل في أسباب ودواعي الحملة الإسلامية، التي قادها ذلك الشاب الثقفي المجاهد، محمد بن القاسم. حيث إن الرسالة المحمدية جاءت لتنشر الإسلام بين الناس جميعاً؛ وتدعوهم إليه، على أيدي شبابها ورجالها وكهولها، كمحمد بن القاسم، وقتيبة بن مسلم، وعقبة ابن نافع وموسى بن نصير. لم يكن هؤلاء القادة الأبطال إلا خلفاء لسعد بن أبي وقاص، وخالد بن الوليد، وأبي عبيدة وغيرهم من أولئك الغر الميامين، رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين. فالرسالة النبوية لم تأت لتظل في مكة أو المدينة، أو تكون مقصورة على جزيرة العرب، بل جاءت إلى الناس كافة ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا... الآية﴾.

كانت فتوحات المسلمين قد وصلت إلى حدود الصين شرقاً، كما كانت تسير سيراً حثيثاً مرضياً إلى جنوب غرب قارة أوروبا. إذاً، ففتح «بلاد وادي نهر السند» جاء كنتيجة طبيعية، وأمر حتمي، خاصة بعد أن فتحت بلاد إيران، وأقاليمها، ودخل أهلها في دين الله. إذ أنه بعد أن دخل إقليما كرمان ومكران، من أراضي فارس، تحت المظلة الإسلامية، كان لا بد أن تدخل الأقاليم المجاورة لهما، هي الأخرى، تحت المظلة نفسها أيضاً، سواء عاجلاً، أم آجلاً. ومع ذلك، فقد يكون صحيحاً مسألة الاعتداء على سفن المسلمين على أيدي رجال «داهر» وما جره ذلك من نتائج، حيث عجّلت بإرسال حملة إسلامية لفتح هاتيك البقاع. ثم إنني لا أستبعد أن يكون بعض البوذيين، من «الجات والميد» قد دخلوا في مراسلات سرية مع المسلمين، وقاموا بتشجيعهم على فتح بلادهم، ليتخلصوا من طغيان طبقة الهندوس الحاكمة؛ خاصة وأنهم لا بد قد سمعوا عن عدل الإسلام، وسماحة حملة لوائه، ودعاة دينه. وما يؤيد ذلك مجريات أحداث تقدم الجيش الإسلامي، وما أوردته مصادرنا التاريخية، من أن السكان أخذوا ينخرطون في صفوف المسلمين. وكما سيرد معنا، فقد ثار سكان مدينة «سِهْوان» ضد الهندوس الحاكمين، وأخذوا

جانب المسلمين[٤٢]. كما سنشاهد أن الرهبان البوذيين، في مدينة «نيرون» يرحبون بالقائد المسلم وبجيشه، ويدعون له بالنجاح[٤٣].

أما مصادرنا التاريخية فإنها تجعل حادثة الاعتداء على سفن التجار العرب وبحارتهم من قبل قراصنة «داهر» السبب الكامن وراء حملة محمد بن القاسم. تذكر تلك المصادر أن حاكم «جزيرة سرنديب» «سيرلنكا أو سيلان» الحالية، كان قد أرسل هدايا وتحفاً، ومعها خطاب ودي إلى الخليفة الأموي في دمشق وإلى واليه على العراق، الحجاج بن يوسف الثقفي، مع بعض التجار المسلمين العائدين إلى تلك الديار، في إحدى رحلاتهم التجارية، ومعهم أرامل ويتامىٰ من كانوا قد توفوا في بلاده من المسلمين[٤٤]. وكما مر معنا سابقاً، اعترضتهم مجموعة من القراصنة، ولعلهم قاموا بذلك العمل بإيعاز من ملكهم «راجا داهر» ويدعون بـ «نكامره Nakamarah»، واستولوا على سفن المسلمين الثمان المحملة بالبضائع والأموال؛ فسبوا النساء واسترقوا الأطفال وقتلوا الرجال، ولم ينج إلا من حمل خبرهم إلى والي العراق. وفي هذا المعنى يورد البلاذري ما نصه: (. . . فأهدى. . . ملك جزيرة الياقوت نسوة ولدن في بلاده مسلمات ومات آباؤهن وكانوا تجاراً فأراد التقرب بهن، فعرض للسفينة التي كن فيها قوم من ميد الديبل في بوارج فأخذوا السفينة بما فيها. . .)[٤٥] وهناك رواية تذكر أن الرياح قد جرفت السفن، وعددها ثمان وليس سفينة واحدة كما يفهم من رواية البلاذري، وغيرت مسارها إلى السواحل القريبة من ميناء «دبل»، وهناك سطا قراصنة، وربما يكون الأهلون، عليها فنهبوا، وقتلوا[٤٦].

إضافة إلى هذه الرواية هناك رواية أخرى، تفيد أن الخليفة عبدالملك بن مروان كان قد بعث له وكلاء إلى بلاد الهند، ليشتروا له غلماناً وجواري، وفي أثناء رحلة العودة هاجمتهم سفن القراصنة بالقرب من «دبل»، فقتل عدد من المسلمين، وأخذ الباقون أسرى، ولم ينج إلا من نقل خبر تلك الكارثة. ورواية تقول بأن أولئك القراصنة هاجموا سفن بحارة المسلمين وهي تحمل حجاجاً قادمين من جزر البحر العربي، «الملديف، وسيلان)[٤٧].

لقد استبعد «پاثان» قصة سطو قراصنة الملك «داهر» على سفن المسلمين، وقال بأن هذه مسألة مصطنعة، اختلقها المؤرخون المسلمون، «ليبرروا عدوانهم على

بلاد السند . . .[48]» والسبب الحقيقي عند «پاثان» مسألة ذات شقين، الشق الأول هو ما يتعلق بتمرد محمد ومعاوية، وهما ابنا الحرث العلافي، وأن «راجا داهر» لم يستأصل شأفتهما، بل آواهما، وأكرمهما في بلاده، فما كان أمام الخليفة، والوالي على العراق، الحجاج بن يوسف الثقفي، إلا إرسال حملة لغزو «راجا داهر» لعقاب ذينك الأخوين[49].

أما الشق الثاني، حسب رواية ذلك المؤرخ الهندي، فهو حسب زعمه، السياسة التوسعية الاستعبادية التي كانت ديدن الحجاج[50].

رداً على هذه الرواية، التي يبدو لي أنها مغلوطة، يمكنني أن أؤكد على ما سبق وذكرته، من أن فتح «بلاد وادي السند» مسألة حتمية، ونتيجة طبيعية تلت فتح أقاليم ايران المجاورة، كرمان، ومكران، وسجستان. وفوق ذلك إن مسألة العدوان على سفن المسلمين مسألة واردة، وإنها محتملة الوقوع، بل لا بد أنها قد حدثت فعلاً، بدليل أن المؤرخين المسلمين لم يأتوا بقصص مختلقة، مشابهة - كما يزعم «پاثان» - ليبرروا فتوحات الإسلام الأخرى، شرقاً وغرباً. والسبب الوحيد، أنهم كانوا، كما يبدو لي أمام واجب ديني يحتم عليهم نشر الدين الإسلامي، بدليل «. . .، وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا. . .» وما سكان «وادي نهر السند» وأهل «الهند» عامة إلا أناس من جملة من يدخل في «كافة الناس» . هذه ناحية، والناحية الأخرى هي أن الحجاج كان منشغلاً جداً، وفي هذه الفترة بالذات، وهي فترة الاعتداء على سفن المسلمين، بمتابعة الجهة الشرقية في أفغانستان، وأراضي «ما وراء النهر»، وما كان يلاقيه قتيبة بن مسلم الباهلي من عناء هناك، ومطالباته المستمرة، والملحة في إرسال تعزيزات، من وقت لآخر. فلا بد أن حادثة سطو القراصنة على محارم المسلمين وممتلكاتهم، مسألة حتمت على الحجاج أن يأخذ ذلك الموقف، وأن يرسل حملة قوية ضد «راجا داهر» وخير ما نستدل به هنا، على مسألة السطو تلك أمور لعل منها:

أ - إن محمد بن القاسم كان قد أرسل في مهمة عسكرية إلى خراسان، وكان قد وصل، في طريقه إلى مهمته تلك، إلى مدينة الري، ومعروف أن هذه المدينة تقع إلى الشمال وباتجاه معاكس لوجهة أراضي «وادي نهر السند»، الذي يقع

في الجنوب، وبعيداً عن منطقتها، فاستعاده الحجاج، وأرسله على رأس حملة ضد ملك السند، وبشكل كان مستعجلاً جداً.

ب ـ نوعية الجند الذين صاحبوا قائد تلك الحملة فهم من فئتين:ـ

١ ـ فئة من الحرس الخاص أو الجند الاحتياطيين، كما نسميهم اليوم، والذين لا تلجأ إليهم الدولة إلا عندما تضطر إلى ذلك اضطراراً، فانتخب الحجاج منهم، وكانوا مقيمين في الشام، ستة آلاف مقاتل، من الفرسان.

٢ ـ فئة متطوعة، فقد أثيرت مسألة الاعتداء على المحارم، وانتهاك اعراض المسلمين، ففتح باب التطوع البحت، فكانت البصرة خاصة، والعراق عامة، قد جعلت مقراً لتجمع المجاهدين، وإرسالهم تباعاً لتعزيز حملة ابن القاسم.

جـ ـ ثم إن مسألة محاولة فتح «بلاد وادي السند»، وما يتعلق بغزو المسلمين لهاتيك الربوع، قد سبقت هذه الحملة بكثير، منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب، رضي الله تعالى عنه وأرضاه، كما سيرد معنا ذلك ـ إن شاء الله ـ كما أن مدينة «دبل» سبق وحاصرها المسلمون، بل وقتل بالقرب من أسوارها قادة مسلمون أثناء حصارهم لها وكانت قد حوصرت أكثر من مرة، قبل مجيء هذه الحملة.

ولو لم تكن مسألة الاعتداء على سفن المسلمين، والانتهاك الذي وقع على محارمهم، لما كان ذلك الموقف المتشدد من جانب الخليفة وواليه، الحجاج، اللذين شعرا بأن من واجبهما أولاً، وقبل كل شيء، حماية المسلمين، وأعراضهم.

بناءً على ما سبق، يمكننا الخروج بنتيجة من كل الروايات، بمختلف مصادرها، هي أن فتح «بلاد السند»، كان أمراً حتمياً، كان سيحصل عاجلاً، أم آجلاً، ولكن مسألة السطو على سفن المسلمين، وانتهاك محارمهم، عجلت ذلك الفتح، وأؤكد على المسألة الأخيرة.

الغزوات التمهيدية لفتح بلاد السند:

كانت حملة محمد بن القاسم، لفتح «بلاد السند»، كما سبق القول، نتيجة طبيعية يحتمها موقع هذه الأراضي المجاورة لأقاليم إيران الجنوبية الغربية، فقد فتح المسلمون أقاليم كرمان، وسجستان، ومكران، سنة ٢٣هـ/ ٦٤٤م، كنتيجة تالية لفتح أقاليم سابقة لها، كفارس، والعراق أيام خلافة الفاروق، رضي الله عنه[٥١]. ولقد كان من المفروض أن يتم فتح هاتيك البقاع قبل ذلك بعشرات السنين، لا كما حدث، حيث لم تفتح إلا في منتصف العقد الأخير من القرن الأول الهجري / أوائل الثامن للميلاد. والذي يبدو لي، هو أن المسلمين تأخروا، وتباطأوا كثيراً في دعوة «سكان السند» إلى الإسلام، ونشره بينهم. ولكن كلنا نعرف السبب الكامن وراء ذلك التأخر، وهو حدوث تلك المآسي بين المسلمين، وأحداثها المؤلمة، أيام الخليفتين الراشدين [«ذو النورين عثمان» و «أبو الحسن والحسين علي»] رضي الله عنهم، وأرضاهم. ثم تلاها بعد ذلك الصراع الدامي على السلطة، بين أسرة علي (رضي الله عنه) وبين بني أمية، ثم بين الأخيرين وعبدالله بن الزبير بن العوام (رضي الله عنه). لهذا فقد كان من نتائجها ليس فقط تأخر فتح «بلاد السند»، بل وضاعت فتوحات المسلمين في أقاليم كثيرة منها أقاليم كرمان، وسجستان، ومكران، فأصبح لزاماً على المسلمين أن يعيدوا فتحها من جديد.

كان ذلك الفتح الثاني بعد الأول بحوالي عشر سنوات، ولإقليمين فقط، هما كرمان وسجستان، أما مكران، فقد تأخر لأكثر من عشرين سنة، حيث لم يتم فتحها، وعلى مراحل، إلا في زمن الدولة الأموية، وخلال فترات حكم الخلفاء الأربعة الأوائل، وخاصة، أيام معاوية (رضي الله عنه)، وعبدالملك، والوليد[٥٢]. وفوق ذلك كله، فقد ظل حكم المسلمين عليها مهزوزا، لم يقر له قرار، لعشرات من السنين، حتى جاء الحجاج إلى العراق، والياً عليها، من قبل الخليفة عبدالملك ابن مروان في عام ٧٥هـ/ ٦٩٥م. أما مكران، فقد انتهى حكم المسلمين عليها منذ فتحها الأول في عام ٢٣هـ/ ٦٤٤م، ورجعت تحت حكم «مرزباناتها». الذين كانوا يخضعون لنفوذ حاكم «السند»، الهندوسي، الذي اغتصب عرش بلادها[٥٣]. وقد كان «مرزباناتها» يطلبون العون من ملك «السند» الهندوسي من وقت لآخر، كلما

أحسوا بهجوم من قبل المسلمين، الذين كانوا تارة ينهزمون لقلتهم، ولعدم وجود سلطة مهتمة ومسؤولة تواصل الامدادات لهم، وتارة يقتل أميرهم، إما على أيدي السكان، وإما على أيدي إخوان لهم مسلمين، في ثارات وإحنٍ قبلية منتنة[٥٤].

قبل أن أبدأ حديثي عن حملة ابن القاسم، رأيت من الأنسب أن استعرض هنا بعض الغزوات الإسلامية المبكرة، لـ«بلاد وادي السند»، والتي لم يكن غرضها الفتح بالدرجة الأولى، وبشكل سريع، بقدر ما كانت عبارة عن حملات استطلاعية، اختبارية إن صح لنا التعبير، لطبيعة البلاد، وسكانها، وظروف حياتهم، وما هم عليه، ومدى استعدادهم لتقبل الإسلام.

تذكر الروايات، التي بين أيدينا، أن العرب المسلمين غزوا سواحل «وادي السند»، المطلة على شواطئ البحر العربي، وذلك خلال السنوات الخمس الأخيرة من العقد الثاني من القرن الأول الهجري / العقد الرابع من القرن السابع للميلاد، وقد شملت غزواتهم مدناً ساحلية، مثل «دِبُل» في السند و«ثانا» و«بروتش»، وذلك في عام ١٥هـ/ ٦٣٧م زمن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه وأرضاه[٥٥]. حققت تلك الحملات بعض النجاح، برغم صعوبات صادفتهم، وخاصة فيما يتعلق بقلة خبرتهم في ركوب البحر، والملاحة البحرية. ومع ذلك فكلنا نعرف موقف الفاروق (رضي الله عنه)، الذي كان لا يحبذ ركوب البحر. ويبدو لنا، أن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) لو استشير مسبقاً، لما سمح بذلك اطلاقاً[٥٦].

لهذا السبب، لم يحاول المسلمون غزو «السند» عن طريق البحر. وكان حتماً عليهم أن يأتوا إليه عن طريق البر. وعليه كان لا بد لهم أن يفتحوا أقاليم قبل «اقليم السند»، كفارس وكرمان، وسجستان، ومكران. ورغماً عن هذا، لم تغب عن خلفاء المسلمين مسألة فتح «بلاد السند»، فأخذوا يرسلون من يجمع لهم أخبارها. ولعل السبب في تشوق المسلمين لفتح هاتيك البقاع، هو ما سبق وذكرناه، من النجاح الذي حظي به التجار المسلمون، ونشرهم الإسلام في أقاليم «الگجرات»، و«ملبار». ناهيك عما حققوه في «جزر الملديف وسيلان»، ودخول الإسلام هناك، بجهود فردية، فأنشأوا المستوطنات، وعمروا المساجد، كما مر ذلك معنا.

من الحملات، الاستطلاعية الأخرى تلك التي أرسلها علي (رضي الله عنه) إلى «السند»، ما قام به الحارث بن مرة العبدي؛ حيث تذكر الروايات، التي بين أيدينا أنه غزاها في عام ٣٨ ـ ٣٩هـ/ ٦٦١م، وقد قتل الحارث مجاهداً في سبيل الله، في عام ٤٢هـ/ ٦٦٤م، في إقليم سماه مؤرخونا وجغرافيونا «القيقان»[٥٧]. لعل هذا الإقليم، كان ميدان نشاط تلك الحملات، التي لم يذكر مؤرخونا أماكن محددة لها، أو مسمياتها زمن علي (رضي الله عنه).

استمر الوضع على هذا المنوال طوال عقود من السنوات تلت، فلم يكن للمسلمين نشاط عسكري يذكر، خلال فترة معاوية (رضي الله عنه) وابنه يزيد، ولا حتى في الفترة التي أعقبت وفاة الأخير، حتى سنة ٧٥هـ/ ٦٩٥م، حيث ولى عبدالملك بن مروان شخصاً، يدعى سعيد بن أسلم بن زرعة (على ثغر السند). ولا يعني هذا «بلاد السند» نفسها، ولكن يعني البلاد التي كان المسلمون قد وصلوها، وهي مشارف الحدود الغربية لذلك الوادي. أي أقاليم مكران، وسجستان، وكرمان. وبعد أن قتل سعيد بن زرعة ألحقت تلك الأقاليم، على ما يبدو لنا، بغيرها من أقاليم الشرق تحت نفوذ الحجاج بن يوسف الثقفي، حيث عينه عبدالملك بن مروان، بعد الانتهاء من مسألة عبدالله بن الزبير في مكة، على العراق في عام ٧٥هـ/ ٦٩٥م. وهنا أرسل الحجاج والياً عليها من قبله، فوقعت صراعات وإحن قبلية بين القادة العرب بها، وتوالى القادة واحداً بعد الآخر، حتى جاء محمد ابن هارون بن ذراع، فظل بها إلى أن جاء محمد بن القاسم بحملته المشهورة، التي فتح بها «بلاد السند»[٥٨].

حملة محمد بن القاسم لفتح «بلاد السند»

بعد أن قتل القائد المجاهد، عبدالله بن نبهان، وهو يحاصر «دِبُل»، وكذلك بعد مقتل بديل على أيدي «داهر» ورجاله رأى الحجاج أن الأمر أضحى جد خطير، فأخذ له العدة، فانتدب لذلك ابن عمه، وختنه، محمد بن القاسم الثقفي، الذي كان قد أرسل من فارس إلى الري، في إقليم العراق العجمي، أو بلاد الجبل، فرده الحجاج إلى فارس وأمره بأن يتجهز لقيادة حملة لفتح «بلاد السند». سار محمد

بحملته، وقوامها ستة آلاف من رجال العرب الأشداء بالشام، إضافة إلى المتطوعة من العراق عامة والبصرة خاصة. كانت مدينة شيراز، عاصمة إقليم فارس، مركزاً لتجمع قوات محمد البرية، حيث ظل بها فترة من الزمن تجمعت إليه قواته، ووصلته الامدادات، واكتمل في استعداده لتلك الحملة، حتى إن الخيوط والمسال والخل كانت من الأشياء التي لم تنقص ذلك الجيش. وإضافة إلى تلك القوات البرية، فقد كانت هناك قوات بحرية، قوامها حوالي خمس سفن، تحمل آلات الحرب الثقيلة، وآلات الحصار الأخرى[٥٩]. كما تذكر بعض الروايات الأخرى، أن قافلة كبيرة من الجمال ذات السنامين كانت قوام هذه الحملة، حيث حملت أثقالها ومؤنها.[٦٠] كما أمر والي «ثغر السند» وقتها محمد بن هارون بن ذراع بأن يلتحق بالحملة مع جميع من كان معه من الرجال، والقائد العام لها محمد بن القاسم[٦١].

بناءً على ذلك، يمكننا القول بأن القوات التي تجمعت تحت ادارة محمد بن القاسم، عشية وصوله إلى «بلاد السند»، تقدر بحوالي خمسة عشر إلى عشرين ألف رجل تقريباً. في أواخر عام ٩٢هـ/ ٧١١م، سارت الحملة من شيراز، متجهة إلى الشرق، وسالكة الطريق نفسها التي سلكها الإسكندر المقدوني، أثناء رحلة العودة، من حملته الشرقية المشهورة، التي ذكرناها سابقاً[٦٢]. عبرت القوات الإسلامية إقليم فارس إلى إقليم كرمان، ومن هذا الأخير دخلت مكران، ومنه إلى «إقليم السند»، حيث سارت، كما يبدو لنا، محاذية لمياه البحر العربي، حتى لا تكون بعيدة عن السفنِ الإسلامية، التي سلكت هي الأخرى البحر، بالقرب مِن اليابسة، على مرأى من القوات البرية. وهنا يذكر البلاذري أن محمدا فتح، في طريقه، كلًّا من «قَنَزْبُور» و «رمائيل»[٦٣]. بعد ذلك نجده يسير باتجاه هدفه الأكبر، وهو مدينة «دِبُل» حيث وصلها في شهر رجب من العام التالي، ٩٣هـ/ أبريل ٧١٢م[٦٤].

ضرب المسلمون الحصار حول تلك المدينة، براً وبحراً، وأخذوا يقذفونها، بالحجارة، والنيران. وقد كان لذلك المنجنيق «العروس» أثره البالغ في النيل من الروح المعنوية للمدافعين، حيث كسرت إحدى قذائفه دقلا كبير الحجم، كان يحمل راية حمراء، إذا هبت ريح دار حول قلعتها، ذات التحصينات المنيعة. بعد حصار، دام قرابة ثلاثة أسابيع، سقطت المدينة في أيدي المسلمين الفاتحين، بعد أن

تسلق رجالها الأشاوس جدران المدينة وأسوارها، ورفع علم المسلمين يحمل راية التوحيد، في أعلى القلعة، مكان تلك الراية الحمراء في أعلى قبة صنمهم. وبهذا أصبحت مدينة «دِبُل» أول حلقة في سلسلة مدن «وادي السند»، التي فتحها المسلمون بقيادة محمد بن القاسم(٦٥).

بعد أن اطمأن على أوضاع «دِبُل» الأمنية، سار محمد بجيشه باتجاه الشمال الشرقي إلى مدينة «نيرون»، التي كانت قد أعلنت استسلامها إلى الحجاج شخصياً في العراق، على لسان رجلين من رهبان معبدها البوذي، فدخلها محمد، ولم يمس أهلها بسوء، لا في النفس ولا في المال، وبنى بها مسجداً، وعين لها حاكماً وإماماً، وغادرها إلى مدينة أخرى(٦٦).

ومن «نيرون» اتجه الجيش الإسلامي إلى الشمال الغربي نحو «سِهْوان»، وبعد اسبوع من الحصار خرج رجالها البوذيون وأعلنوا خضوعهم، بعد أن هجرهم حاكمها الهندوسي وهرب بجلده، للقائد المسلم محمد، وفي أثناء طريقه إلى «سِهْوان» اعترضه كبار رجال الدين، وأعلنوا استسلام مدينة «سَرْبِيدَسْ»(٦٧).

قبل الانتقال إلى شرح تفاصيل فتح مدينة أخرى، رأيت أن أقف قليلاً عند فتح مدينة «سِهْوان»، لنطلع من خلال إيراد أحداث الحصار والاستسلام السلمي من أهلها، على أن ما كان يعرقل دخول الإسلام إلى هاتيك البقاع، وتسهيل مهمة الفتح الإسلامي لها، هو وجود الملك الهندوسي الديانة، وأن الأهالي «البوذيين» كانوا شديدي الميل إلى المسلمين، بدافع من حبهم للتخلص من ذلك الحكم الجائر، الذي كان يمارسه الهندوسيون عليهم.

كانت مدينة «سِهْوان» تعتبر بمثابة مفتاح لبقية مدن «وادي السند»، خاصة وأن استسلامها جاء على وجه سلمي، وعن طواعية واختيار من قبل الأهالي، بعد أن هرب واليها؛ حيث ذهب وفد من المدينة وأخبروا قائد المسلمين بأنهم لا يكنون أي ولاء لذلك الحاكم الهندوسي الجائر ويدعى «بَجْهرا بن چندرا بن چش Bajhra son of Chandra son of Chach» وهو أبن أخي الملك «راجا داهر»(٦٨). وقد سبق لهذا الحاكم أن قرر بأن الدفاع عن مدينته، في أول الأمر، ولكن عندما ضرب المسلمون

الحصار حولها، تخلى أهلها عنه؛ فدبر خطة، وهرب منها، حتى دون علم المسلمين، فأرسلوا بعد ذلك خلفه من طارده؛ وقد قتل فيما بعد. يقول مصنف (شش نامة) بأن رهبان مدينة (سهوان) خرجوا إلى محمد بن القاسم وقالوا له: «... جميع المواطنين، الفلاحون، وأصحاب الحرف، والتجار، والطبقات الدنيا، لا يدينون بولائهم لـ بجهرا». كما أنه لم يكن يملك أية قوة تقف معارضة لك...»[٦٩]. كما يذكر المصنف بأنهم قد قالوا لأميرهم الهندوسي «...، إن محمد بن القاسم لديه أمر من الحجاج بأن يحمي كل إنسان يطلب منه حمايته،... كما أن العرب أوفياء، ويلتزمون بعهودهم..»[٧٠].

بناءً على ذلك، يظهر لنا، أنّ مدة حصار مدينة «سِهْوان» لم تستمر، لمدة أسبوع، إلا لوجود حاكم «داهر» في داخلها، ولولا ذلك لقابلوا المسلمين كما سبق وقابلهم أهل «نيرون».

توالت مدن، ومناطق «وادي السند» السفلى تعلن خضوعها للفتح الجديد، ولم يقف دون خضوع ما تبقى منها سوى وجود «داهر» متحصناً في قلعة «برهمان آباد»، ثم أخبار كانت تصل إلى سكان تلك المنطقة، وشائعات، تردد هنا وهناك، عن الاستعدادات التي بدأ يتخذها ذلك الملك الهندوسي، لمنازلة المسلمين، في معركة مفتوحة لطرد المسلمين من تلك الديار[٧١].

لو نظرنا إلى خارطة «وادي السند السفلي»، لوجدنا أن محمداً قد أوغل في تقدمه شمالاً، محاذياً «لنهر السند»، من جهته الغربية. وبذلك أصبح في موقف عسكري ضعيف، حيث ترك مكاسبه في الجنوب، وعلى رأسها «نيرون» مهددة بالخطر من قبل «داهر» الذي أخذ فعلاً يستعد من «برهمان آباد»، القريبة من «نيرون» لمنازلة المسلمين، وطردهم من أرض السند كلية. لذلك، كان لزاما على ابن القاسم أن يعود بجيشه جنوباً، لمواجهة خطر الملك الهندوسي الداهم.

والسؤال، الذي يطرح نفسه هنا هو: لماذا توغل المسلمون في فتوحاتهم شمالاً، بينما كان «داهر» في قلعة «برهمان آباد»، مع أن سرعة القضاء عليه تعني شيئاً واحداً، وهو: نهاية كل مقاومة قد تقف أمام الزحف الإسلامي، في أراضي السند؟

والذي يبدو لنا أن السبب، قد يكمن في نقاط، لعل منها:

أ ـ صعوبة عبور نهر السند الكبير، وخوف الترصد للمسلين، من قبل «داهر» ورجاله، أثناء فترة العبور، فخشي المسلمون أن يؤخذوا على غرة، وهم مشغولون بالعبور.

ب ـ النجاح الكبير، الذي لاقاه المسلمون في زحفهم إلى الشمال، وأن ذلك سيجعل روح «داهر» ورجاله تضعف يوماً بعد يوم، كلما نجح المسلمون في توغلهم داخل أراضيه.

جـ ـ ربما أن محمداً رأى أن يتوغل حتى يجد الفرصة مواتية لعبور النهر، ثم يأتي إلى «برهمان آباد» من الشمال فيكون بذلك قد حصر ملكها في منطقة ضيقة، تتكون من هذه المدينة، وما حولها، فلا يصل إليه مدد من الشمال، وكان المسلمون قد ضموا الجنوب منها، والغرب في أيديهم، وبذلك يقطع أي أمل لنجاح مقاومة «داهر» أو هربه، إن هو حاول ذلك.

مهما كانت أسباب تقدم محمد إلى الشمال، فقد جاءته الآن أوامر الحجاج، وهو القائد المدبر، والمخطط لفتح السند، بأن يرجع جنوباً إلى «نيرون» ثم منها يبدأ في مناجزة «داهر»[٧٢].

معركة «الراوَرْ Rawar»

تذكر الروايات التاريخية التي بين أيدينا، أن المعركة التي حددت مصير «أراضي السند»، وغيرت مجرى حياة أهله، من جميع النواحي، كانت قد جرت بالقرب من مدينة «الراور Rawar»، الواقعة في المسافة بين «برهمان آباد» و «نيرون».[٧٣] وبما أن تجمع قوات «داهر» كانت إلى الشرق من نهر «مهران» وهو «السند» المعروف حالياً، كان لا بد لجيوش المسلمين من العبور إليهم. وفي هذا مجازفة كبيرة، وخطورة على حياة المسلمين ومصيرهم في أرض «السند» بأسرها، حيث كان «داهر قد أعدّ لهم كمائن على جانب الوادي من الشرق ليتخطفوا المسلمين، فرادى وجماعات، أثناء العبور، ولكن الله سلم، فقد كان لسياسة القائد

ومستشاريه الحكيمة، وتخطيطهم السليم، وما نمت عنه نتائج العبور من حنكة عسكرية، ومواهب قيادية نادرة، الانتصار الحاسم على قوة الهندوس. دخل ابن القاسم في مفاوضات سرية مع أحد المسؤولين الكبار، وكان واحداً من امراء «الملك داهر»، ومن انيطت به رئاسة تلك الكمائن، وحماية المناطق التي كانت سهلة العبور، ومنها كان المسلمون قد قرروا العبور إلى الضفة الشرقية «للسند». وعد ابن القاسم ذلك الأمير الوعود الحسنة، حتى رضي، ليس فقط بأن يخلي بين المسلمين ومعابر النهر، بل لقد انضم إلى صفوفهم مقاتلا ضد سيده. ويدعى «راسل»[٧٤].

تذكر الروايات التاريخية أن معركة «الراور» لم تكن بأقل من معركة القادسية ضراوة وبسالة من جانب الخصمين المتحاربين من ناحية، ولا من حيث النتائج التي تمخضت عنها المعركة من ناحية ثانية. فإن كانت القادسية، بقيادة سعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه)، قد فتحت الباب، تقريباً، على مصراعيه لفتح بلاد فارس، ودخول أهلها إلى الإسلام، فقد بسطت «الراور» بقيادة ابن القاسم، أراضي «السند» ممهدة أمام الفتح الإسلامي، حتى وصلت قواته إلى حدود ولاية «كشمير» في الشمال.

بعد أن عبر المسلمون «نهر السند»، وتلاحقت قواتهم جاءهم «داهر» بقضه وقضيضه، راكباً فيله الأبيض، يسير، وفي ذهنه سحق المسلمين، واجلائهم من السند كلية. بدأت المناوشات، بين الخصمين كما ظهر لنا من نتائج حساباتنا في يوم الخميس السادس من رمضان عام ٩٣هـ/ ١٦ حزيران، يونيه عام ٧١٢م؛ واستمرت طوال الأيام الخمسة التالية، أي حتى يوم الأثنين العاشر من رمضان/ ٢٠ حزيران/ يونيه، من العام نفسه[٧٥]. وفي اليوم الأخير أحاطت ثلة من خيالة المسلمين بذلك الفيل الأبيض، واشعلوا النيران في هودجه، فذهب الفيل مسرعاً إلى النهر وألقى بنفسه فيه ليطفئ النيران، فأطيح بفارسه ومن كان معه؛ حيث يذكر بأن فتاتين كانتا معه، إحداهن تناوله السهام للرمي، والأخرى تزوده باللوز لانعاشه وتجديد نشاطه. ويذكر بأن أهل «الراور» لم يستسلموا إلا بعد أن أشارت عليهم بذلك إحدى زوجات «داهر»[٧٦].

بعد ذلك الانتصار الحاسم، اتجه محمد بجيشه إلى قلعة (الراور) وضرب حولها الحصار، حيث كانت في داخلها احدى زوجات الملك المقتول. وتدعى (راني باي Rani Bai) وأحد أبنائه (جاي سينغ Jai Singh)(٧٧). وبعد أن اشتدت وطأة الحصار قرر ابن «داهر» الهروب إلى قلعة «برهمان آباد» أملاً بجمع الشتات، وأن يتصدى للزحف الإسلامي، بينما فضلت الزوجة حشد الطاقات والدفاع عن القلعة. ومع ذلك فقد انتهى الأمر بأن اقتحم المسلمون قلعتها، فعمدت المرأة، التي يذكر أيضا بأنها كانت أختاً لداهر وزوجته في الوقت نفسه، إلى إحراق نفسها ومن معها من نساء القصر(٧٨).

بعد أن اخضعت مدينة «الراور»، سار جيش المسلمين باتجاه «برهمان آباد»، وفي طريقه فتح عدة أماكن وقلاع، كانت «بهرور» و«دهليلا» الواقعتان بين «الراور» و«برهمان آباد»، مما فتحه المسلمون، وذلك بعد حصار دام قرابة شهرين، لكل واحدة منهما، كما يذكر مصنف «شش نامة»(٧٩).

قبل أن يتقدم إلى الشمال، باتجاه «برهمان آباد» يبدو لنا أن ابن القاسم رأى أن يستميل قلوب مواطني الأراضي المفتوحة حديثاً، أكثر فأكثر، فقام بتعيين شخصيتين بارزتين، في تاريخ تلك الفترة، فعين ابناً للملك «داهر» اسمه «نوبة»، وكان ممن استجاب لنداء القائد المسلم، بأن يدخل الناس في الإسلام، بعد أن أرسل خطابات إلى مختلف العشائر وعلية القوم، يدعوهم إلى الدخول في الإسلام ولهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، أو دفع الجزية، ثم وعدهم الحماية والرعاية؛ فاستجاب له ابن «داهر» هذا، وكذلك وزيره «سيساكر Sisakar». وقد جعل محمد مقره في مدينة دهليلا(٨٠). كما قام بتعيين وزير (داهر)، الذي كان ممن استجاب لدعوة القائد المسلم، للدخول في طاعته، وزيراً ومستشاراً له. وحول هذا الشأن، يحدثنا مصنف «شش نامة» قائلاً: «....، وعندما سمع سيساكر Sisakar، وزير داهر، هذا النداء، أرسل بعضاً من ثقات خدامه، وطلب الحماية للدخول في طاعة محمد بن القاسم. وعند ذلك قام هذا الوزير فأرسل إليه النساء اللائي كن محتجزات عنده، وقال بأنهن أولئك اللواتي «أسرهن قراصنة داهر» وصرخن مستنجدات بالحجاج لإنقاذهن...(٨١)».

وهنا أبدى محمد بن القاسم احتراماً كبيراً، بعد أن رحب بتلك البادرة الطيبة، لمثلي ذلك الوزير، وأرسل إليه بأن يقدم إلى عنده، كما أرسل كبار أمرائه لاستقباله، وأظهر له تقديراً عظيماً، وعامله معاملة غاية في اللطف والاعتبار، وأسبغ عليه منصب الوزيريه. وبذلك أضحى «سيساكر» وزيراً لابن القاسم[٨٢].

كانت هذه سياسة حكيمة، من محمد، حيث استمال، بعمله ذاك، وزير «داهر» فكان من نتائج هذه السياسة اطلاق النساء من أسر العدو؛ كما أراد أن يستفيد من خبراته، في ادارة البلاد. وبذلك يكون قد سحب البساط، تماماً، من تحت «جاي سينغ» باستمالة أخيه، وكسب جانبه هو ووزير أبيه؛ وفوق ذلك عيّن الأول حاكماً، والثاني وزيراً، فحال، بذلك بين «جاي سينغ» وبين اتحاد سكان أواسط وأعالي وادي السند تحت لوائه. وقد أثمرت هذه السياسة، فأخذ الناس يغدون إلى المسلمين، ويعلنون خضوعهم تحت سلطة الإسلام، اقتداء بابن «داهر» ووزيره. وبذلك نجد أن صرخات الاستنجاد، وخطابات الدعوة التي وجهها «جاي سينغ» إلى سكان «السند» للوحدة، والوقوف أمام المسلمين بقيادته، لم تثمر، حتى مع الإخوة والمقربين من أبيه[٨٣].

عندما لم يستجب أحد لنداءاته، وصيحات الاستغاثة، قام «جاي سينغ بن داهر» بتنظيم ما نعرفه اليوم بحرب العصابات، بعد أن هجر «برهمان آباد» التي سار إليها المسلمون، وأحكموا حولها الحصار، الذي استمر حسب أوثق الروايات، مدة ستة أشهر، فاستسلمت في يوم الأحد ٢٩ من شهر ذي الحجة من عام ٩٤هـ/ ٢٥ أيلول/ سبتمبر سنة ٧١٢م. أما ابن «داهر» فقد فشل في حروبه، التي لم يكن لها جدوى، وهرب في نهاية الأمر إلى ملك «كشمير».

وقد رفض (هوديفالا» مسألة هروب «جاي سينغ» إلى ملك كشمير، أما التاريخ الذي ذكره مصنف «شش نامة» فإنه لا يتفق مع مجريات الأحداث، ومتناقض مع ما سبق وذكره في صفحات سابقة. وقد فاتت على المترجم، والمحقق (ايلليوث ودوسون)، وكذلك على كل من نقل عنه من المؤرخين اللاحقين. ولم يشر أحد إلى ذلك. غير أن (هوديفالا) قد صحح الأيام وأسماءها الواردة خطأ عند هذا المصنف. وكان قد سبق وأشار إلى هذا الخطأ، الذي جانبه المصنف، فصححه،

حسب قوله، بأن جعل ذلك في العام السابق، أي في عام ٩٢هـ/ ٧١١م. وهذا أيضاً خطأ، لأن محمد بن القاسم استدعي من جبهة القتال في منتصف عام ٩٦هـ/ ربيع سنة ٧١٥م، وهو على مشارف «مملكة كشمير». فلا يعقل أن يظل تلك السنوات ما بين «برهمان آباد» و «الملتان» وقد زالت أكبر عقبة في طريقه وهي مقتل «راجا داهر». لذلك فإن الذي يظهر لنا كما يلي: أشار صاحب «شش نامة» أن راجا داهر» قتل وهزم جيشه، كما مر معنا في شهر رمضان عام ٩٣هـ/ حزيران يونيه سنة ٧١٢م. وأن فتح كل من قلعة «بهرور» و «دهليلا» قد استغرق قرابة أربعة أشهر من بعد مقتل «داهر». ومعروف أن مدينة «برهمان آباد» لم يفتحها المسلمون إلا بعد هزيمة «داهر». إذاً فكيف يكون حصارها في شهر رجب عام ٩٣هـ/ نيسان أبريل سنة ٧١٢م، قبل ذلك ويستمر حصارها، وكما أورد المصنف، ستة أشهر أي حتى أواخر شهر ذي الحجة من عام ٩٣هـ/ تشرين الأول/ اكتوبر سنة ٧١٢م؟ إذاً، فلا بد أن يكون العام المقصود هو عام ٩٤هـ/ ٧١٢ - ٧١٣م. بناءً على ذلك فلا بد أن الحصار بدأ في يوم السبت أول رجب عام ٩٤هـ/ الموافق للثاني من نيسان/ أبريل سنة ٧١٣م، واستمر ستة أشهر حيث اقتحم المسلمون قلعة «برهمان آباد» في يوم الأحد ٢٩ من ذي الحجة عام ٩٤هـ/ المواق ٢٥ ايلول/ سبتمبر عام ٧١٣. وإضافة إلى ذلك فإن حملة ابن القاسم قد جعلها اليعقوبي في عام ٩٢هـ وهو الصحيح، بعد أن قضى ستة أشهر في شيراز للاستعداد للحملة[٨٤].

فتح عاصمة السند «الور ALOR»[٨٥]

بعد أن انتهى المسلمون من القضاء على «داهر» وقتله في معركة «الراور» وما نتج من جراء ذلك، حيث فتح المسلمون كافة أراضي السند السفلى، وعلى رأسها عاصمتها الأقليمية «برهمان آباد» كان لا بد من السير شمالاً، على الاتجاه نفسه، لفتح عاصمة الهندوس الكبرى في وسط أراضي «السند». لأن فتحها يعني دخول تلك الأراضي، من وسط مملكة «داهر» تحت سلطان الإسلام. لذلك فقد سار ابن القاسم من منطقة «برهمان آباد» بعد أن رتب أمور ادارة المناطق المفتوحة، في أوائل العام التالي، وهو على ما نعتقده، عام ٩٥هـ/ تشرين الأول/ اكتوبر سنة ٧١٣[٨٦].

اتجهت القوات الإسلامية شمالاً، ونهر «السند» إلى يسارها، أي إلى الغرب، وفي الطريق استقبله سكان منطقة «ساوندي» بالترحاب، والرقص والغناء الشعبيين، وأعلنوا خضوعهم تحت سلطة الإسلام[٨٧]. ثم سارت، بعد ذلك، حتى وصلت منطقة العاصمة الكبرى لـ «مملكة السند» وقتذاك[٨٨].

كان أحد أبناء الملك «داهر» يتولى شؤون العاصمة، والدفاع عنها، وهناك حشد كل طاقاته داخلها، اعتقاداً منه، على ما يمكنني فهمه من الروايات التاريخية التي تمكنت من الاطلاع عليها، أن والده ما يزال حياً[٨٩].. وهذا الاعتقاد كان سائداً حتى بين الأوساط الشعبية. هنا يحدثنا مصنف «شش نامة» أن سكان مدينة «الور» كانوا يدافعون عنها بروح معنوية كبيرة، للاعتقاد عينه؛ وأن ملكهم، وخاصة من جانب الهندوس كان يسير في طريقه لإنقاذهم من جيش المسلمين. لهذا، فقد كانوا يصرخون في قوات المسلمين التي اطبقت على مدينتهم محاصرةً لها، لإعلامهم بأن «داهراً» قادم بقوات كبيرة، ويحثون المسلمين بأن يهربوا قبل أن يصل ملكهم فيقضي عليهم. ويستمر هذا المصنف في حديثه عن هذا الموضوع فيقول بأن المدافعين استمروا على ذلك الوضع، وعدم الانصياع للنداءات التي ترسل لهم للاستسلام للمسلمين بالتي هي أحسن، حتى أخرج ابن القاسم اليهم إحدى نساء ملكهم، الأسيرات لدى المسلمين فأعلمتهم بحقيقة الوضع، وأن ملكهن قد قتل[٩٠]. بعد ذلك شرع المدافعون في فتح باب المفاوضات السلمية، فاستسلمت المدينة للفاتحين، ودخل المسلمون عاصمة مملكة السند»[٩١].

من الشخصيات الهامة، التي استسلمت لابن القاسم «كاكسة بن چندر بن سلايج» وهو ابن أخي «داهر»[٩٢]. وما يمكننا فهمه، مما أورده صاحب «شش نامة» أن ما كان يضمره القائد محمد بن القاسم، من شعور طيب، تجاه أفراد أسرة «داهر» الذين كانوا يأتون إليه مستسلمين عن طواعية واختيار، قد ظهر على فلتات لسانه. فقد أثنى عليهم، بوصفه لهم بأنهم «ينتمون إلى أسرة عريقة من أسر «الور»، فهم أناس عقلاء، ومثقفون، وأنهم جديرون بالثقة، لأنهم أمناء. فهم مشهورون بالأمانة والصراحة...». لذلك، فإنهم إذا ما جاءوا إليه فإنهم سوف يكرمون، ويصفح عنهم[٩٣].

كانت هذه من سجايا ابن القاسم، لاستمالة القوم وكسب قلوبهم، لذلك آتت هذه السياسة الحكيمة ثمارها، حيث شجعت ذلك الأمير بأن يأتي إليه، ويعلن استسلامه. فاستقبله القائد المسلم، ورحب به، وعفا عنه؛ على الرغم من سوابقه، حيث كان ممن حارب إلى جانب عمه «داهر» ضد المسلمين، في معركة «الراور»، ثم هرب، بعد مقتل عمه. وثق به محمد بن القاسم غاية الثقة، حيث كان ذا ثقافة عالية، وكان يُعد واحداً من فلاسفة الهند. فأخذ يستشيره، في كل صغيرة وكبيرة، ويستعين به، في كيفية ادارة البلاد الجديدة، فكان «كاكسة» يشير بما هو في صلاح المسلمين، وصالح البلاد وأهلها. وفوق ذلك تذكر الروايات بأنه أصبح من أول من يأخذ السلاح، من بين بقية الأمراء وكبار القادة ويحمله مقاتلاً إلى جانب المسلمين. لهذا نجد القائد المسلم يُعَيِّنه مستشاراً، ويطلق عليه لقب «المشير المبارك». وقد مر معنا سابقا أن وزير «داهر» نفسه كان قد انضم إلى ابن القاسم، فعينه وزيراً له. ويبدو لنا أن (كاكسة) قد أصبح مستشاراً خاصاً، و (سيساكر) وزيراً[٩٤].

لقد أثمرت سياسة ابن القاسم التسامحية مع سكان السند، حين سهلت عليه مهمته في الميدان العسكري، لذلك لم تقف في وجه جيشه مدينة ولا قلعة.

فتح أعالي وادي السند، وعاصمته الملتان*

لم أعثر في مادتنا التاريخية، التي تسنى لنا الرجوع إليها، على تواريخ تذكر الزمن الذي فتح فيه الجيش الإسلامي مناطق أواسط السند وأعاليه. حيث نعرف أن هذا الجيش غادر مدينة «برهمان آباد» في أوائل عام ٩٥هـ/ أواخر سنة ٧١٣م، وقد تكون أخذت منه المسافة بين هذه المدينة، وعاصمة «داهر، الور» قرابة ثلاثة أشهر[٩٥]. وهذه الفترة الزمنية فرضية فقط، ويمكننا معها القول إن الفترة التي استغرقها جيش المسلمين، في حصار، وفتح «الور» وما يجاورها، مع فترة للراحة، هي الأخرى ثلاثة أشهر[٩٦]. لذلك، فقد بقي لدينا الآن سنة كاملة تقريباً، من المدة الكلية التي قضاها محمد بن القاسم في «السند» حتى قبض عليه في رجب عام ٩٦هـ/ نيسان، أبريل سنة ٧١٥م، كما سيرد معنا في آخر هذا البحث، من «فتوح السند».

بعد أن رتب أمور المناطق الوسطى، «لوادي السند»، بمساعدة أهلها ومشاورتهم ،وعلى رأسهم مستشاره المبارك، ووزيره، نجد الجيش الإسلامي يسير في اتجاه الشمال الشرقي، في طريقه إلى أراضي «وادي السند العالية». صوب عاصمتها العريقة مدينة «الملتان»[٩٧]. لو نظرنا إلى موقع «مدينة الملتان» لوجدناها تحتل الوسط من المنطقة الوسطى، تقريباً، من أراضي السند العليا، وهذه المنطقة هي المتاخمة لمنطقة ولاية «كشمير»، وهي ولاية «أقليم البنجاب» في الباكستان الحالية.

تحدثنا مصادر مادتنا التاريخية، في هذا الشأن، أن ملك «الملتان»، ويدعى (راجاكندا Raja kanda) قرر مناجزة المسلمين، ظناً منه بأنه سيحرز نصراً عليهم[٩٨]. ولعل بعض الأسباب، التي جعلته يتخذ ذلك القرار ما يلي:ـ

١ ـ قرب مملكته من حدود مملكة «كشمير» ووجود صلات ودية بين الطرفين؛ فرأى أن يطلب نجدة ومساعدة أهل «كشمير» ضد المسلمين، كعدو مشترك لهم. لذلك فقد راسل ملكهم، وطلب منه ارسال نجدات عسكرية وغيرها، ظناً منه بأنه سوف يتلقى طلباته بسرعة منه، لمعرفته أن المسلمين سيغزون أراضيه، فور الانتهاء من أراضي «الملتان». لذلك، فقد رأى ملك «الملتان» أن الأولى لصديقه ملك «كشمير» أن يساعده في حرب المسلمين خارج أراضيه، لا بعد أن يأتوا إليه، ويحاربهم وهم في عقر داره؛ ربما يفقد معها مملكته وحياته ومن يلوذ به. من هذا المنطلق، على ما يبدو لنا، كانت الرؤيا قد ارتسمت في ذهن ملك «الملتان»، وما كان يعتقده تجاه تعامله مع ملك «كشمير».

٢ ـ حصانة «مدينة الملتان»، فقد رأى ملكها، أنه إذا ما اضطر إلى اللجوء إليها، بعد هزيمة مع الأعداء فإنه سيلجأ إلى معقله الذي يصعب، بل يستحيل لأية قوة، اقتحامه. لذلك سنجد أن الجيش الإسلامي لم يستطع أخذها بالقوة، لمناعتها، إلا بعد أن أطلع قائدهم، من قبل أناس كانوا محاصرين داخل القلعة نفسها، ومن سكانها، على منطقة الضعف، التي يمكن فتح المدينة من خلالها. وقد اختلفت الروايات، ذات الصلة، حول نقطة الضعف تلك، كما سنشاهد، ومع ذلك سنرى أن المدينة لم تفتح إلا بشكل غاية في الصعوبة.

٣ ـ هروب حاكم مدينة «السكة»، ويدعى رائي بجهرا «Rai Bajahra»، إلى ملك «الملتان» بعد هزيمته واحتلال مدينته، وتحريضه له بأن يحارب المسلمين، حيث رأى أن في وجود حاكم «السكة» معه عاملاً مقوياً، ومشجعاً له، لمنازلة المسلمين[٩٩].

بعد أن فتح المسلمون مدينة «بهاتيا Bahatiya»[١٠٠] ساروا منها إلى مدينتي «إسكلنده والسكة»، فأخذوا الأولى بعد سبعة أيام من الحصار، أما الثانية، فقد استغرق حصارها قرابة سبعة عشر يوماً، واستشهد من المسلمين قرابة مائتين وأربعين، بين قائد وجندي[١٠١].

لم يتلق ملك «الملتان» استجابة من جاره الشمالي، كما كان يتوقع. لذلك لم ير جدوى للخروج من معقله الحصين، لمقابلة المسلمين، فأخذ يشحن قلعته بالمؤن والذخائر، ما يستطيع معها مقاومة حصار المسلمين، مهما طال. وفعلا فقد طال حصارهم له، والذي ضربه محمد بن القاسم ورجاله حول قلعة «الملتان» المنيعة، لأكثر من شهرين، دون الوصول إلى النيل منها، حيث لقي المسلمون الأمرين، وعانوا أشد المعاناة وأقساها. فقد قلّت المواد التموينية، والغذائية منها على وجه الخصوص، لدرجة لجأوا معها إلى أكل الحمير. وفي هذا الخصوص يحدثنا البلاذري قائلا «. . .، ونفدت أزواد المسلمين فأكلوا الحمر. . .»[١٠٢] أما صاحب مصنّف «شش نامة» فيقول «. . .، وأخيراً نفدت المواد الغذائية وعزت لدى المسلمين، إلى درجة أن ثمن رأس الحمار ارتفع حتى بلغ خمسمائة درهم. . .»[١٠٣].

لا بد أن تكون أوضاع المسلمين المحاصرين السيئة قد وصلت إلى حاكم القلعة، ورغم ذلك وجد أنهم مستمرون، ومصرون على الحصار، حتى يقتحموا مدينته. لذلك خافهم، وقرر الهروب، فدبر له أمره، ونجح في ذلك، حتى إنه خرج من المدينة، وهرب إلى ملك «كشمير» دون علم المحاصرين له.

أدى تصرف ملك «الملتان» هذا إلى أن بعض سكان المدينة خرج إلى قائد المسلمين، وطلب منه الأمان في سبيل إعلامه الطريقة التي يمكنه معها اقتحام المدينة. وحول هذه المسألة، يحدثنا مصنف «شش نامة» بأن، رجلاً (لم يذكر اسمه) خرج إلى محمد بن القاسم مستأمناً، وأخبره بأن المدينة يمكن أن يدخلها المسلمون إذا

ما هم ركزوا جهودهم على سور من الناحية الشمالية منها، فتم ذلك. وبعد ثلاثة أيام اجتاح المسلمون «مدينة الملتان»[١٠٤]. أما البلاذري، فيذكر بأن ذلك الرجل، الذي جاء إلى محمد بن القاسم، قد دلّ المسلمين إلى مجرى لماء، كان يدخل إلى المدينة فيغذيها باحتياجاتها من الشرب، دون علم المسلمين به. وهناك غور المسلمون مجراه حتى لم يعد يصل إلى المدينة الحصينة شيء منه، فأخذ منهم العطش كل مأخذ. بعدها نزلوا على حكم ابن القاسم، فدخل المسلمون المدينة[١٠٥].

لم تذكر مصادرنا العربية التي تسنى لي الاطلاع عليها أية فتوحات جديدة لجيش المسلمين، بقيادة ابن القاسم، بعد مدينة «الملتان» بحيث جعلت على ما يبدو لي، هذه المدينة آخر فتوحات ذلك الشاب الفاتح في بلاد «السند والهند»[١٠٦]. إن هذا الأمر، على ما يبدو لي غير صحيح، لأننا لو تتبعنا مجريات الأحداث في هاتيك البقاع، حسب التواريخ الزمنية لوجدنا أن محمد بن القاسم قد ظل حوالي سنة كاملة مقيما في «الملتان» وما جاورها، وهذا شيء غير متوقع، من هذا المجاهد الشاب، وخاصة إذا أخذنا في الاعتبار أن شؤون الفتح والإدارة بعد فتح هذه المدينة أو تلك لم يكن يستغرق أكثر من شهر، على أقصى حد. هذا إضافة إلى أننا لم نجد في مصادر مادتنا ما يدل على شيء قد يكون حبس جيش المسلمين وقائده في «الملتان» سنة كاملة.

بناءً على ذلك وعلى ما يمكن استنتاجه، فإن فتح مدينة «الملتان» والمنطقة التي حولها، ربما يكون قد تم خلال النصف الثاني من عام ٩٥هـ/ آخر النصف الأول من سنة ٧١٤م. لهذا، فإنه يمكننا القول بأن ابن القاسم ربما غادر منطقة «الملتان»، والواقعة في أواسط «أقليم البنجاب» الحالية، في أوائل عام ٩٦هـ/ أوائل النصف الثاني من سنة ٧١٤م، متجهاً شمالاً باتجاه مملكة «كشمير». وهنا يحدثنا مصنف «شش نامة» أن محمداً غادر «الملتان» الى الشمال بعد أن بنى مسجداً جامعاً بها؛ ورتب أمورها، وعين حاكماً عليها حتى وصل منطقة سماها المؤلف بـ «أراضي الأنهار الخمسة»[١٠٧]. وهذه المنطقة حددها المصنف بأنها منطقة الحدود بين ولايتي «السند»، جنوباً و «كشمير»، شمالاً حيث ذكر أن محمد بن القاسم، عندما وصل إليها، قام بتجديد معالم الحدود بين تلكما الولايتين[١٠٨]. إذاً، لو أمعنا النظر في موقع هذه المنطقة

المذكورة، لوجدنا أن جيش المسلمين قد واصل السير شمالاً حتى وصل، ربما، إلى الشمال الشرقي من مدينة «لاهور» الحالية، وهذا ما تؤيده رواية تذكر أن ملك «كشمير» أرسل الى الصينيين يطلب منهم النجدة ضد جيوش المسلمين، التي أضحت قاب قوسين من بلاده(١٠٩).

توقف الفتوحات الإسلامية في «الهند والسند» على أيدي العرب المسلمين

في أواخر النصف الأول من عام ٩٦هـ/ أوائل سنة ٧١٥م، أصبح ابن القاسم يحكم جميع مناطق «نهر وادي السند»، وأضحى على مشارف حدود مملكة «كشمير»، ويطل على حدود «راجيبوتان» من ناحيته الغربية، من هناك، أخذ يخطط، على ما يبدو لنا، لحملة يقوم بها ضد أحد الاقليمين، ولعل الأخير كان هدفه، للأسباب التالية:

١ - سهولة أراضي أقليم «راجيبوتان» وعلى العكس منه مملكة «كشمير» الجبلية الوعرة المسالك.

٢ - كان الجو ما يزال بارداً، إذ أنه كان في أواخر أشهر شتاء عام ٩٦هـ/ ٧١٤ - ٧١٥م.

٣ - إن «البنجاب»، في كل من «الهند والباكستان» الحاليتين، ما هو إلا أرض واحدة مستوية السطح، وقريبة الشبه بالجزيرة العربية.

ومع ذلك، فلا يمكننا إلا القول، بأنه مهما كانت نوايا ومخططات ذلك الفاتح العظيم، والمجاهد الكبير، إن شاء الله، فإن الله قدر أن يقف في فتوحاته في «بلاد الهند والسند» حيث كان قد وصل؛ وأن تتوقف معه الفتوحات الإسلامية، في تلك البلاد الطيبة، على أيدي العرب المسلمين، حيث وقف. ويستمر توقف المد الإسلامي هناك لأكثر من ثلاثة قرون ونيف؛ بعدها يستأنفه المسلمون، ولكن من غير العرب، على أيدي الغزنويين الأتراك وذلك في أوائل القرن الخامس للهجرة/

الحادي عشر الميلادي، هذا إذا استثنينا بعض الهجمات السريعة، وغير المستقرة، أيام قادة خلفوا ابن القاسم على أرض «الهند والسند».

جاء سليمان بن عبدالملك (٩٦-٩٩هـ/ ٧١٥ - ٧١٧م) الى الخلافة الأموية بعد وفاة أخيه الوليد بن عبدالملك، فكان أول عمل قام به، تجاه الفتوحات في بلاد «الهند والسند»، أن عزل محمداً من القيادة؛ وفوق ذلك أمر بأن يرسل الى العراق مكبلاً في الأغلال، وزج به في سجن خصومه، فتولوا تعذيبه حتى مات. وهذه مسألة معروفة لدى كل باحث وقاريء. لذلك لم أجد داعياً، أو ضرورة لتكرار شيء من تلك المأساة التي حلت «بفاتح السند» العربي المسلم. ولكن لنا هنا تعليق قصير، وهو أن أجر محمد بن القاسم قد ثبت، إن شاء الله، عند رب السماء والأرض، ومن فيهن، إن كان قد ضاع عند طالبي الدنيا، من هذا أو ذاك. ولقد كان عزل محمد، من قيادة تلك الجبهة، قد افقد المسلمين عامة، وبني أمية، وعلى رأسهم الخليفة الذي عزله خاصة، الشيء الكثير. فقد صدق، والله محمد عندما تمثل بقول القائل:

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ... ليوم كريهة وسداد ثغر[110]

فقد أضاع سليمان محمداً، بعزله عن تلك الجبهة التي كانت من جبهات الجهاد في سبيل نشر الدين الإسلامي، وشريعته السمحاء، وأضاع معه ثغر «بلاد الهند والسند».

لقد كان ابن القاسم قائداً، صدق الله الجهاد في سبيله، فصدقه الله وعده له بالنصر - «وكان حقاً علينا نصر المؤمنين»، كان متميزا، في خلقه وفي تعامله مع سكان المناطق المفتوحة؛ وفي حنكته السياسية؛ وفي ادارته الفذة؛ وفي عسكريته النابغة؛ وفوق ذلك كله، في اخلاصه لمعتقده. كان ليناً فوق العصر، ويابساً دون الكسر. أحب الناس الذين حوله، فأحبوه وأخلصوا له. احترم أهل البلاد المفتوحة غاية الاحترام، فأعطى كل ذي حق حقه وزيادة؛ فوفوا له، وأخلصوا في وفائهم له؛ وبذلوا دماءهم دونه، مقاتلين بني قومهم وأهليهم دونه. إن الزائر للبلاد التي فتحها محمد بن القاسم في هذا الوقت، وبعد مرور أكثر من ثلاثة عشر قرناً، ليسمع على شفاه سكان هاتيك البلاد ذكرى محمد الطيبة، تعيش معهم، يومياً؛ فلا يذكرون اسمه مجرداً بل يسبقونه بـ: سيدي أو مولاي، عماد الدين محمد بن القاسم. ولأول مرة أسمع لقبه «عماد الدين» فرحم الله ذلك المجاهد رحمة واسعة. آمين.

«بلاد الهند والسند» بعد ابن القاسم؛

على الرغم من الجهود المضنية، التي بذلها قادة «ثغر السند» الذين جاءوا بعد محمد بن القاسم، فقد ضاع في النهاية أغلب ما فتحه العرب المسلمون، مع قائدهم محمد. وعلى الرغم من دخول «حكام السند»، جميعاً تقريباً، في الإسلام، استجابة لدعوة الخليفة الأموي الصالح عمر بن عبدالعزيز «٩٩ - ١٠١هـ/ ٧١٧ - ٧٢٠م» بأن لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، وبقائهم حكاماً لبلادهم تحت المظلة الإسلامية، مظلة العدل والرحمة، فقد نبذوا الإسلام، وحاربوا المسلمين، وأخرجوهم من «بلاد السند العليا، والوسطى»؛ ولم يبق لهم إلا أجزاء قليلة في مناطقه السفلى؛ كل ذلك نتيجة عدم وجود قائد وأمير كمحمد بن القاسم، أوخليفة كعمر، رضي الله عنه وأرضاه[١١١].

انحصر جهد المسلمين ونفوذهم في معقلين بناهما العرب المسلمون، هناك، هما «المحفوظة والمنصورة»[١١٢]. ثم إن المسلمين هناك انشغلوا بالحروب الطاحنة بينهم، فأضحى تاريخهم مترعاً بأحداث مؤلمة، مليئة بالصراعات بين القوى الإسلامية والهندوسية، وبعد أن استتب الأمر للمسلمين جاءت موجة من الصراعات القبلية العربية، لعصبيات منتنة ومقيتة، بين عرب الشمال وعرب الجنوب. وما أن خبا سعيرها، حتى أعقبه صراع أشد ضراوة منه بين المذاهب الإسلامية التي خرجت عن المنهج المحمدي[١١٣].

كان منصور بن جمهور الكلبي، كما قلنا في حاشية سابقة (١١٢)، هو آخر أمراء بني أمية حيث دخلت «بلاد السند» في ظل الحكم العباسي، حوالي ١٣٢هـ/ ٧٥٠م، واستمر ولاتهم يحكمون حتى عام ٢٤٠هـ/ ١١٥٥م، حيث كان عمر بن عبدالعزيز الحبَّاري، آخر أمراء الدولة العباسية هناك. وفي تلك السنوات الأخيرة، أسس عمر هذا له بتلك الديار دولة مستقلة، حكمت حتى جاء الغزنويون عام ٤١٦هـ/ ١٠٢٦م فقضوا عليهم، وأصبح تاريخ «بلاد السند» بعد ذلك مرتبطاً بمدينة غزنة، حاضرة الغزنويين، ثم بتاريخ الأسر التي خلفت الغزنويين، كالغوريين ومماليكهم، حتى جاء المغول، وأدخلوا تلك الديار، فأضافوها تحت نفوذهم، وبذلك انقطعت بلاد وادي السند سياسياً، وادارياً عن مركز الدولة الإسلامية في دمشق، أولاً، ثم في بغداد، ثانياً منذ ئذ. وكانت بداية هذه النهاية تنحية ابن القاسم عن قيادة ثغر بلاد «الهند والسند»[١١٤]

بعض نتائج هذه الدراسة

لقد رأيتني، في هذا البحث المتواضع، أنني قد توصلت إلى بعض النتائج التي أرجو أن أكون قد وفقت إليها، لإفادة القارىء العربي عامة، والباحث المؤرخ خاصة، فلعل من هاتيك النتائج :-

(١) الرد على بعض مؤرخي (بلاد الهند والسند) المتحاملين، في رواياتهم ضد الفتح الإسلامي عموما، وحملة محمد بن القاسم على وجه الخصوص، حيث يذكر بعضهم بأنها حملة توسعية، استعبادية، متخذة من الدين مطية، لتحقيق طموحات الحجاج وأغراضه.

(٢) إن النجاح الكبير الذي حققه ابن القاسم، في تلك الحملة، كان يعود، وبالدرجة الأولى الى التمسك بالعقيدة الإسلامية، وسيرة السلف الصالح؛ فكان يعامل البلاد وسكانها ، طبقا لما جاء في الشرع الحنيف، فأحبه الناس وانضووا، طائعين، تحت سلطانه، سلطان الإسلام.

(٣) رفع ابن القاسم، الظلم عن أهل البلاد، فبكوه عندما غادرهم؛ وهذا بعكس أقوال بعض ذوي الأهواء، من مؤرخي هاتيك البقاع المحدثين.

(٤) التعريف بالأماكن، وتحديد مواضعها، بالأكيال، بقدر ما في وسعي، وطاقتي. والتعريف بأسماء الشخصيات الهامة، والواردة في حملة ابن القاسم.

(٥) الاستفادة من مصادر هامة، في موضوع محمد بن القاسم، دونت باللغة الفارسية، أو بلغات غيرها، كالسنسكريتية، والهندية الحديثة مثلاً، والتي ترجمت الى اللغة الانجليزية، وتسنى لنا الاطلاع عليها.

(٦) تحديد تحركات حملة ابن القاسم، بالتاريخ، حسب اجتهادي، وعزائي إن اخطأت، أنني اجتهدت.

(٧) أهمية وقوف الادارة المركزية، المهتمة والحازمة، خلف قائد هذه الحملة أو تلك، ومتى أصيبت باللامبالاة، فشلت الحملة، وضاع معها هدفها السامي، التي تريد، بل وتسعى، الى تحقيقه.

(٨) كيف أضاع الخليفة، الأموي الجديد في دمشق، محمداً، فضاع معه جميع ما فتحه المسلمون، وكسبوه، في «بلاد الهند والسند» رغم التضحيات الجسام، التي بذلت في ذاك السبيل.

(٩) لعل هذا البحث قد يكون سد ثغرة في فتوحات الإسلام، ورجاله في الجبهة الجنوبية الشرقية، التي لم تحظ في نظري بالدراسة والتمحيص، كغيرها من الجبهات الأخرى.

حواشي البحث وتعليقاته

(١) إذا كانت «مصر هبة النيل» فإن أراضي «أقليم وادي السند» هبة نهرها الكبير، والذي تسميه، مصادرنا العربية والإسلامية ومعاجمها الجغرافية بـ «مهران». وقد نسب جميع الوادي، من شماليه الى جنوبيه باسم النهر، فبدون هذا النهر لا يمكن أن تعيش أرضه، فهو مصدر حياتها. لمعلومات أوفى في هذا الخصوص، انظر، خان، زاهد، «تاريخ وحضارة السند» كراتشي، ١٩٨٠ م ص ص : ١ وبعدها؛ ومن المعاجم الإسلامية انظر الاصطخري، أبو اسحاق الفارسي «كتاب مسالك الممالك» بريل، ١٩٢٧م، ص١٨٠؛ وابن حوقل، ابو القاسم النصيبي، (كتاب صورة الأرض) بيروت، ١٩٧٩م، ص ص: ٢٧٤ ـ وبعدها.

(٢) العصر الذي عرف في التاريخ بـ «عصر الفتوحات الإسلامية» يمكن تحديده تقريباً من خلافة الفاروق، رضي الله عنه، حتى معركة بلاط الشهداء، أيام بني أمية، ومع ذلك فقد أجيز لنفسي أن أدعي أن عصر بني أمية، يمكن ادخاله في الإطار العام لذلك العصر، على اعتبار أن الفتح لم يتوقف، على الأقل من حيث التفكير فيه، أو الاستعداد له، حتى إن آخر خلفاء بني أمية، مروان بن محمد (١٢٧ ـ ١٣٢هـ/ ٧٤٤ ـ ٧٥٠م) قاد الجيوش وتصدى، بل توغل في أراضي الدولة البيزنطية.

(٣) تقع حدود «ولاية السند» الحالية، ضمن نطاق أراضي الوادي السفلية، فيحده من الشمال بهكّر Bahakkar إلى كراتشي جنوباً، ومن الغرب كيرثر Kirthar ومن الشرق صحراء ثر Thar. زاهدخان، (تاريخ وحضارة السند) ص:٢.

(٤) أورد، على سبيل المثال حمد الله المستوفي القزويني، في معجمه «نزهة القلوب» ترجمة المستشرق لوسترينج، ذكرى جب، ليدن، ١٩١٩م، ص: ٢٥٢، ضمن حدود «أراضي وادي السند» كلًا من «مدينة المنصورة» في الجنوب، و «مدينة لاهور»، في الوسط، و «مدينة بشاور، في الشمال. ومعروف أن الأولى تقع في «مقاطعة السند»، والثانية في مقاطعة البنجاب، بينما تقع الأخيرة في مقاطعة الحدود الشمالية الغربية لدولة الباكستان الحالية. وهناك بعض المصادر، تاريخية، وجغرافية، تجعل «مدينة الملتان» وهي في الأراضي الوسطى للسند، داخل الإطار العام لهذا الوادي، فتجعلها ضمن مدن «بلاد السند» انظر على سبيل المثال: الاصطخري، أبو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسي، الكرخي، «مسالك الممالك» از انتشارات كتابخانه صدر، مطبعة برل، ١٩٢٧م :ص ١٧٣ ـ ١٧٤.

(٥) من الجنوب، والجنوب الشرقي، والجنوب الغربي.

(٦) أ.د. أس. نترجن «مجتمع وديانة العصر الڤيدي» نشر في «خط عام لتاريخ حضارة الهند»، جمع وتحرير سيد عبداللطيف، دلهي، ١٩٧٩م ص.ص: ١٤ ـ ١٥.

(٧) وتعني «الأرض المقدسة»، حيث تقع هذه المستوطنة، حسب قول سيد محمد لطيف، «لاهور، تاريخها، وآثارها الباقية وعصورها السحقية» لاهور، ١٩٨١م ص.ص: ٣٦٥-٣٦٦، بين نهري سرسوتي في ثينسر، وغكّر في ولاية آمبلة.

(٨) «الڤيدية» نسبة إلى «الڤيدا»، وهي الكتب الهندوسية الأربعة، التي تنتمي إليها الطبقات الأربع، التي هي روح هذه الديانة الطبقية:
أ ـ طبقة البراهميين، وهم رجال الدين الرهبان.
ب ـ الشتريون، وهم طبقة المحاربين ورفاق الملوك (العسكريون).
جـ ـ السودراس، وهم طبقة الخدم، والعبيد.

انظر، المرجع السابق، ص: ٣٦٦. ولمعلومات عن مناطق سكنى القبائل المهاجرة شمال «بلاد الهند والسند» راجع: نترجن «مجتمع وديانة العصر الڤيدي» «خط عام لتاريخ حضارة الهند» ص.ص: ١٥ ـ وبعدها، وكذلك: أ.د. هنومشة، (التيارات الدينية الحديثة في الهند (الهندوسية) المصدر السابق نفسه، ص.ص؛ ٢٨١ وبعدها. لقد فصل، أبو الريحان البيروني، عن هذا المصدر انظر الحاشية رقم (٢٧) تحت، عن طبيعة الديانة الهندوسية، في ج١ الفصل الثاني ص: ٣٢ وما بعدها في هذا الفصل، حيث جعلت هذه الديانة مجتمعها طبقات سبعاً.

(٩) انظر لطيف «لاهور» ص: ٣٦٧. كذلك حاشية رقم (٣٩).

(١٠) انظر الحاشيتين السابقتين.

(١١) كان الصراع بين الشرق والغرب قائماً، وقد تزعم الفئة الأولى، بشكل عام، امبراطورية الفرس، والفئة الثانية، الرومان والمقدونيون، بشكل خاص، فقد بلغت قوى الأكاسرة أيام داريوس الكبير في أواخر القرن الثاني عشر ق. هـ السادس ق.م. وقوى الأخيرين أيام الاسكندر المقدوني، الذي اجتاح امبراطورية فارس، أيام داريوس الثالث في النصف الأخير من القرن العاشر ق. هـ/ الثالث ق.م. انظر: بورن، «فارس والأغريق»، دفاع الغرب ٥٤٦ ـ ٤٧٨ ق.م، لندن، ١٩٧٠م، في ثنايا الكتاب؛ آلمستد، (تاريخ الامبراطورية الفارسية شيكاغو ولندن، ١٩٧٠م ص.ص: ٥٠٥ ـ وبعدها، ثم ص.ص: ٥١٩ ـ وبعدها؛ حيث دخل الاسكندر عاصمة فارس «پرسپوليس Persepolis»؛ لمعلومات اضافية عن غزوة الاسكندر، ومعاركه في إيران والشرق عموماً، وخط عودته، انظر: قرشي، «تاريخ باكستان» كراتشي، ١٩٦١م، جـ١/ص.ص: ٩١ وبعدها.

(١٢) ثبر، روميلا Ramila Thapar، تاريخ الهند «انجلترا، ١٩٨٣م، ج١/ص: ٥٩.

(١٣) تعاقبت أسر إسلامية، من القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، على الحكم في شبه قارة «الهند والسند» كالغزنويين، والغوريين، ودولة المماليك في دهلي، وهكذا أسرة اسلامية تعقب أخرى، حتى جاء المغول، وظلوا يحكمون في هاتيك الديار حتى انهى البريطانيون الحكم الإسلامي بها. وكل أسرة من تلك الأسر الإسلامية ضربت بسهم وافر في سبيل توسيع رقعة المساحة الإسلامية على شبه القارة تلك.

(١٤) كانت زيارتي لبلاد «الهند والسند» المعروفة اليوم بالهند والباكستان، خلال فصلي خريف وشتاء عام ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م، وقد جبت «بلاد السند»، من مدينة كراتشي والمدن التاريخية في الجنوب، الى مدينة لاهور في الشمال، أما «الهند»، فقد زرت ٨٠٪ تقريباً، من مدنها ومعالمها الإسلامية، لمختلف مراحل أسرها الإسلامية، منذ قطب الدين ايبك، مملوك الغوريين في دهلي، حتى آخر أباطرة المغول. ووجدت مع الأسف أن تلك المعالم الحضارية سائرة الى الاندثار، والمسلمون فيها لا حول لهم ولا قوة.

(١٥) لم يكن الدين الإسلامي، وبالتأكيد، أول الأديان التي اعتنقها ساكنو بلاد «الهند والسند» أو أنه أكثر المعتقدات «الدينية اتباعاً، فقد كانت كلها، ما عدا «ديانة السيخ» تتبع قبل مجيء الإسلام وقد جعلت الدين الإسلامي أول الأديان، لأن موضوع بحثنا عن الإسلام والمسلمين وفتح المسلمين لهاتيك الربوع. انظر في هذا الخصوص بكير «ا. ب. س. للفن الهندي». ص.ص: ٥٠ ـ ٧١.

(١٦) يبلغ عدد سكان المسلمين في بلاد «الهند والسند» اكثر من ثلاثمائة مليون تقريبا.

(١٧) تعتبر مدينة «بنارس» المدينة المقدسة، مقراً رئيسياً لدى اتباع الديانة الهندوسية. وتقع هذه المدينة الى الشرق من مدينة الله آباد، وهي مقر ديانتهم. عن هذه المدينة، وديانة الهندوس انظر: ج. أي. بليكر، «أ. ب. سي. للفن الهندي» لندن، ١٩٢٢م، ص.ص؛ ١١٠ ـ ١١٩، نترجن «مجتمع وديانة العهد الفيدي» في «خط عام لتاريخ حضارة الهند»، ص.ص: ١٤ ـ ٤٦، لطيف، «لاهور»، ص.ص: ٣٦٦ ـ ٣٦٧.

(١٨) ما يتعلق بفلسفة وطبيعة دعوة وروح الديانة البوذية، يجدها القارىء أكثر لدى الأستاذ الدكتور نترجن، المصدر السابق في حاشية ١٧، ص.ص: ٤٨ ـ ٥٨.

(١٩) أوضحت «المجلة الوطنية» التي تصدر في واشنطن، في خارطة لها عن جنوب آسيا نسبة اتباع الأديان في تلك الديار. والزائر لتلك المناطق قد يشاهد اتباع الديانات المختلفة إضافة الى أن الوطن الأصلي للديانة البوذية، هو أقليم «البنجاب» الحالي في باكستان. ومن هذا الأقليم انتشرت الى الجنوب، والجنوب الشرقي. إلا أنها اختفت من هذا المكان، وحلت محلها ديانات أخر، مثل الدين الإسلامي، وديانة السيخ، والهندوسية، والمسيحية، انظر في هذا خارطة عدد ديسمبر عام ١٩٨٤م المرفقة بالعدد المذكور.

(٢٠) ظهرت الديانة الزرادشتية في أواسط القرن الثاني عشر ق.هـ/ السادس ق.م. لمعلومات حول هذه الديانة، انظر: بورن «فارس والأغريق» ص.ص: ٦٤ ـ ٨٠؛ «المستد» «تاريخ الامبراطورية الفارسية». ص.ص: ٩٤ ـ ١٠٨؛ ما يتعلق بأهم الديانات السائدة في شبه قارة «الهند والسند» راجع مقالة الاستاذ الدكتور/ هنومنثة كتب عن الهندوسية» والاستاذ الدكتور/ رحمة الله خان، كتب عن «الاسلام في الهند» وكلتا المقالتين نشرتا في «خط عام لتاريخ الحضارة في الهند» والمقالتان جاءتا بعنوان «التيارات الدينية المعاصرة في الهند» ص.ص: ٢٨١ ـ ٢٩٨.

(٢١) بليك «أ. ب. سي. للفن الهندي» ص.ص: ١٠٤ ـ ١٠٩.

(٢٢) «جزر المدليف» يسميها ابن بطوطة، «جزائر ذيبة المهل» ويقدر عددها بحوالي ١٠٨٧ جزيرة، وسكانها مسلمون. لمعلومات جيدة وأكثر تفصيلاً عن أوضاع الإسلام، والمسلمين، في تلك الجزر، «وجزيرة سيلان»، انظر: ابن بطوطة. أبو عبدالله محمد اللواتي، «رحلة ابن بطوطة» جـ٢ / ص.ص: ٦٥٤ وبعدها. أما ما أورده القزويني، زكريا بن محمد «آثار البلاد وأخبار العباد» بيروت، دار صادر، ص.ص: ٤٢ ـ ٤٤، فمعلومات غير دقيقة. راجع كتاب. جورج حوراني «العرب والملاحة في المحيط الهندي» ترجمة يعقوب بكر، القاهرة، ١٩٥٨م ص.ص: ١٩ وبعدها.

(٢٣) فريشتا، محمد قاسم، «تاريخ المسلمين في الهند» ترجمه من الفارسية الى الانجليزية، جون بريكز، دلهي ١٩٨١، جـ٤/ ص: ٢٣٣.

(٢٤) كان من أولئك الحكام، ملك أقليم الكجرات، ويدعى ولبهري Valabhrai «أو» بلهارا Balhara» وقد سمح للعرب المسلمين ببناء مستوطنات، ومساجد لهم داخل مملكته، مع الحرية التامة في ممارسة شعائرهم الدينية؛ راجع في هذا الموضوع: د/ پاثان، ممتاز حسين، «تاريخ السند، الفترة العربية» جـ٣ حيدر آباد السند، ١٩٧٨م، ص١٥٧.

(٢٥) راجع الحاشية رقم (٤٥) تحت.

(٢٦) پاثان، «تاريخ السند» جـ٣/ ص.ص: ١٥٥ ـ ١٥٦.

(٢٧) راجع في هذا الخصوص: البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد، «الهند عند البيروني» ترجمة زخاو، لاهور، جـ١، ١٩٦٢، حيث يذكر أن ذلك كان على وجه الخصوص، في أيام اسفنديار والذي كانت امبراطوريته تمتد من حدود الصين شرقاً الى حدود بلاد الأغريق غرباً؛ وهذا، على ما يبدولنا من أراضي ما وراء النهر في الشرق إلى البحر المتوسط في الغرب، ومن وراء «نهر السند» وبحر العرب جنوباً إلى جبال القوقاس شمالاً؛ كما يشير البيروني، إلى أن سياسة «كسرى فارس، اسفنديار»، والذي أسس معابد النار في شتى أنحاء دولته، قد اتبع هذه السياسة نفسها الأكاسرة الذين جاءوا من بعده، جـ١/ ص.ص: ٢٤ ـ ٢٥. كما وردت رواية تشير إلى أن «داريوس الكبير» كان شديد التدين، بل ومتعصباً، فأخذ يفرض الديانة «الزرادشتية» على الناس بالقوة، فقد أعطته الحق بأن يخضع العالم ويفرض حكمه على سكانه، وكذلك ديانته هذه: انظر: بورن، «فارس والإغريق» ص.ص: ٦٤ ـ ٨٠.

(٢٨) المصدر السابق نفسه، والصفحات نفسها.

(٢٩) انظر هذه الآية الكريمة في سورة البقرة (٢)، آية: ٢٥٦.

(٣٠) كانت مدينة «دِبُل» أو «دِيبُل» أو «الدَّيْبُل» الميناء الرئيسي لمنطقة «وادي نهر السند» عشية الفتح الإسلامي. وقد كانت بلدة كبيرة تحيط بها أسوار عالية قوية البناء، محكمة التصميم؛ كما كانت مشهورة بصناعة اللؤلؤ المستخرج من مياه البحر، الذي تطل عليه، بكميات كبيرة، هذا بالإضافة إلى أنها كانت مرفأً تجارياً مهماً، على البحر العربي. ولقد كان من الصعب جداً اقتحامها. وقد اختلف في تحديد مكانها، في الوقت الحاضر بين مؤرخي وجغرافيي هذا العصر، فمنهم من قال

بأنها «مدينة تتا» ومنهم من قال بأنها ذلك المكان الذي يطلق عليه حاليا «بنبور» أو «بنبهور» وتنطق «بنبور» وآخرون يقولون بأنها هي مدينة «كراتشي» الحالية، وقائل يقول بأنها «بندرلاهور». ما يتعلق بهذه المسألة، وما جرى من نقاش فيها انظر «تاريخ الهند كما أورده مؤرخوها» ترجمة وتحقيق وتعليق إيلليوت، ودوسون، المجلد الأول «الفترة الإسلامية» لاهور، ١٩٧٩م ص. ص: ٣٧٤ وبعدها؛ كذلك، پاثان، «تاريخ السند»، ص. ص: ٣٥٠ ـ ٣٥٦. وقد ورد اسم هذه المدينة في أغلب المعاجم الجغرافية الإسلامية، «مسالك الممالك» للاصطخري، وكذلك عند. الإدريسي، وابن حوقل، والمقدسي، ص: ٤٧٩، وياقوت الحموي، في معجمه. أما «بنبهور» فقد كتب عنها كتيب في ٥٥ صفحة، عن حفريات هذه المدينة. على يد د/ف. أ ـ خان، كراتشي، ١٩٧٦م، وهي تقع على بعد حوالي ٤٠ ميلا، (٦٤كم) شرق مدينة كراتشي الحالية، إلى اليمين من الطريق الرئيسي الى مدينة حيدر آباد السند.

هناك كتاب آخر عن «مدينة تتا العمارة الإسلامية» للاستاذ الدكتور أحمد حسن داني، اسلام آباد، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ويقع الكتاب في ٢١١ صفحة.

انظر كذلك: اكرام، ص م.، «تاريخ الحضارة الإسلامية في الهند وباكستان» لاهور، ١٩٨٢م، ص: ٣. وقد أشار الاصطخري، (مسالك الممالك) ص: ١٤٠ أن جزر، وبعض موانيء البحر العربي غير آمنة الملاحة، وأن هناك ملكاً جباراً (وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا» وأن قوتهم مستمرة منذ عهد موسى (ﷺ)... ولهم الى يومنا هذا منعة وعدة وبأس وعدد ولا يستطيع السلطان أن يغيرهم..» ص. ص: ١٣٣ ـ ١٤٠.

(٣١) كان اسم حاكم «السند» العام، ملك السند، شخص يدعى «داهر» حكم من عام ٤٩هـ/ ٦٦٩م الى عام ٩٤هـ/ ٧١٢م. لمعلومات عن أسرة هذا الملك انظر الحاشية رقم (٣٤) تحت.

(٣٢) حول حادثة الاعتداء على سفن المسلمين، راجع هذا البحث (ص. ص: ٢٦ ـ ٢٧ وبعدها) ولقد أورد بعض المؤرخين، الذين كتبوا في هذا الموضوع، بأن الملك «داهر» رد على خطاب الحجاج بن يوسف الثقفي، الذي طالب فيه ذلك الملك باطلاق سراح النسوة اللآتي أخذهن أولئك القراصنة أسيرات، واعادة ما سلبوه الى المسلمين، بأنه لا يملك أية سلطة على أولئك القراصنة. وقدوردت هذه الرواية، مثلاً عند: الكوفي، محمد علي بن حامد بن أبي بكر، في كتاب عنوانه «شش نامة» أو «تاريخي هند وسند»، تحقيق: د/ داود بوتا، دلهي، ١٩٣٩م وهو كتاب قام بترجمته الى الفارسية من مصنّف باللغة العربية، لمؤلف مجهول، عاصر أحداث الفتح الإسلامي للسند، وكتب عن تاريخ تلك البلاد منذ ما قبل ذلك الفتح. والكتاب العربي كان يحمل عنوان «تاريخ الهند والسند» أو «كتاب الفتح» وقيل إن عنوانه «منهاج الدين والملك» وقد ترجمه الكوفي بعد سنة ٦١٣هـ/ ١٢١٦م، انظر النسخة الفارسية، ص: ٩٢ (ولمعلومات عن هذا الكتاب انظر، ترجمة ايلليوت، ودوسون، جـ١ / ص. ص: ١٣١ وبعدها. وقد اعتمدت على هذه الترجمة الانجليزية، في بحثي هذا، لا على النسخة الفارسية، التي قد يشار إليها في بعض الأحيان. لأن القاريء الباحث الكريم، قد لا يتسنى له الرجوع الى هذه النسخة لندرتها، وربما لعدم معرفته بلغة هذا الكتاب «الفارسية» انظر كذلك: اكرام، «تاريخ حضارة المسلمين...»، ص١٤ وحاشية رقم (١٧).

(٣٣) انظر؛ پاثان، «تاريخ السند» ج١/ص:٥٦.

(٣٤) انظر: الكوفي «شش نامة» أو «تاريخي هند وسند» الترجمة الانجليزية جـ١/ ص: ١٣٨.

(٣٥) انظر: المصدر السابق، الجزء والصفحة نفسيهما.

(٣٦) انظر؛ اكرام، «تاريخ حضارة المسلمين...» ص.ص: ١٤ وبعدها.

(٣٧) انظر: الكوفي (شش نامة) الترجمة الانجليزية، جـ١/ ص.ص: ١٣٨ - وبعدها.

(٣٨) المصدر السابق نفسه، والجزء، والصفحات.

(٣٩) لمعلومات عن هذه القبائل، انظر ما قاله ايلليوت، ودوسون في «تاريخ الهند»، في الملاحق، جـ١/ص.ص: ٥٠٣ - ٥٣١؛ ابن حوقل، «صورة الأرض» ص.ص: ٢٧٩ - ٢٨٠، وكذلك: كتاب: «مجمل التواريخ» المترجم من السنسكريتية إلى العربية على يد شخص يدعى (أبو صالح بن شعيب بن جامع) غير معروف تاريخها، ومن العربية إلى الفارسية على يد شخص اسمه (علي بن محمد الجيلي) في عام ٤١٧هـ/ ١٠٢٦م، وقد كان أميناً لمكتبة جرجان في هذه الفترة. وقد قام ايلليوت ودوسون، بترجمة جزء من الكتاب في «تاريخ الهند» عن «الميدواجات» انظر هذا الكتاب ص.ص: ١٠٣ وبعدها ثم ص.ص: ٥٠٧ - ٥٠٨، ٥١٩ - ٥٣١.

(٤٠) انظر: پراساد، اشواري، «تاريخ الهند في العصور الوسطى» من عام ٦٤٧ - ١٢٥٦م، الله آباد، ١٩٧٦م، ص: ٤٤، اكرام، «تاريخ الحضارة الإسلامية في الهند والباكستان»، ص.:٧.

(٤١) فتحت القوات الإسلامية جميع أراضي «أقليم السند»، وقسماً كبيراً من أقليم الپنجاب الى حدود أقليم «كشمير» في الشمال، والى الحدود الغربية لأقليم «راجپوث»، اكرام «تاريخ الحضارة». ص:٦.

(٤٢) «سِهْوان» أو «سنديمان Sihwan, Sindiman» مدينة تقع في ولاية «دادو Dadu» الحالية، بالقرب من مدينة حيدر آباد السند، على الضفة اليمنى لنهر السند؛ پاثان، «تاريخ السند» جـ٣/ ص: ٥٠. وقد سماها ابن بطوطة، (رحلته «ص.ص: ٤٤٨، ٤٥٣ وبعدها، «سيوستان».

(٤٣) «نيرمن» أو «بيرون» احدى المدن ذات المواقع الحصينة في «بلاد وادي السند»، وتقع على الطريق العام «تتا - حيدر آباد السند» حول هذه المدينة، وهل تقرأ: «نيرون أو بيرون» وعما إذا كانت مدينة ابي الريحان البيروني، وذكر المعاجم الجغرافية لهذه المدينة انظر: ايلليوت «تاريخ الهند.»، جـ١/ ص.ص: ٣٧٦ - ٤٠١، لأنه لا داعي لتكرار نقاش ذلك هنا. كذلك، انظر حاشية رقم (٦٦) تحت، والمصادر الواردة فيها.

(٤٤) حكم الوليد بن عبدالملك من عام ٨٦هـ/ ٧٠٥م الى عام ٩٦هـ/ ٧١٥م، أما ولاية الحجاج بن يوسف الثقفي للعراق فقد كانت من عام ٧٥هـ/ ٦٩٤م حتى وفاته في عام ٩٦هـ/ ٧١٤م.

(٤٥) البلاذري، أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر، بن داود البغدادي، «فتوح البلدان» بيروت ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، ص: ٤٢٣.

(٤٦) المصدر السابق، الصفحة نفسها، پراساد، «تاريخ الهند»ج..، ص.ص: ٤٣ - ٤٤، پاثان، «تاريخ السند..» جـ٣/ ص.ص: ١٦٤ - ١٦٥، كذلك: قرشي، «تاريخ باكستان»..، جـ٢/ ص١١.

(٤٧) باثان، جـ٣، ص: ١٧١، نقلاً عن «التاريخ المعصومي» للسيد محمد معصومي بخاري، الفارسي اللغة، ص٧٠، ومع ذلك، فلا يمكننا الأخذ بروايته، لأن صاحبها من علماء القرنين العاشر والحادي عشر للهجرة/ ١٧ - ١٨م كتب مؤلفه في آخر العقد الأول من القرن الحادي عشرهـ/ أوائل الثامن عشر الميلادي.

(٤٨) ص.ص: ١٦٦ - ١٦٧.

(٤٩) كان الخليفة عبدالملك بن مروان (٦٥ - ٨٦هـ/ ٦٨٥ - ٧٠٥م) قد عين سعيد بن أسلم بن زرعه على (مكران وكرمان) وما يستطيع فتحه من «بلاد وادي السند» إلا أنه قُتِلَ، في إحَنٍ وثارات قبلية بغيضة، على يد «العلافيان» وهما محمد ومعاوية ابنا الحرث «وعلاف هو ربان بن حلوان بن عمران ابن الحاف بن قضاعة» فغلبا على البلاد. وهنا عمد الحجاج بن يوسف الثقفي، فأرسل مجاعة بن سعد التميمي، نائباً من قبله؛ فاسترد البلاد وهرب العلافيان الى الملك «داهر». إلا أن مجاعة مات في السنة نفسها، فخلفه شخص يدعى عبدالله بن أبي بكرة، إلى أن مات. ثم جاء بعده عبدالرحمن ابن الأشعث، ثم تلاه على ولاية «ثغر السند» محمد بن هارون؛ ثم لحق به عبدالله بن نبهان السلمي، على رأس حملة ضد «داهر». وقد قُتِلَ عبدُالله هذا أمام (دِيْبُل) وهو محاصر لها. ثم جاء من بعده شخص اسمه بديل بن طهمة البجلي، حيث انتدب من عمان لحرب «داهر» إلا أنه قتل هو الآخر. ظل محمد بن هارون بن ذراع النمري المسؤول عن «ثغر السند» الى أن جاء محمد بن القاسم، فألحق به. إلا أن ابن هارون توفى وهو في طريقه، مع حملة ابن القاسم وجيش المسلمين، إلى (دِيْبُل)، كما سنذكر ذلك: انظر الحاشية (٦١). راجع في هذا الخصوص، البلاذري «فتوح البلدان» ص٤٢٣؛ ابن الأثير، عز الدين بن ابي الكرم، «الكامل في التاريخ». بيروت، ١٤٠٠هـ/ جـ٢/ ص: ٣٦.

(٥٠) باثان، «تاريخ السند»، جـ ٣/ ص: ١٦٧.

(٥١) البلاذري، «فتوح البلدان» ص: ٣٧٨ وبعدها؛ الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، «تاريخ الرسل والملوك»، بيروت ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م، جـ٤/ ص.ص: ١٨٠ - ١٨٢؛ ابن الأثير «الكامل في التاريخ» جـ٣/ ص.ص: ٢٢ - ٢٤.

(٥٢) البلاذري «فتح البلدان» ص.ص: ٣٨٣ وبعدها.

(٥٣) هو «راجا چش بن سيونج Raja Chach Ibn Saywayij» مؤسس البراهميين الهندوس في السند، انظر: باثان «تاريخ السند..، ص: ١٥٨.

(٥٤) لمعلومات حول فتوحات اقاليم ايران المذكورة، راجع في ذلك: البلاذري، «فتوح البلدان» ص.ص: ٣٧٨ وبعدها؛ كذلك كتابي الطبري، وابن الأثير، حسب حوادث السنين، من سنة ٢٣ هـ وبعدها.

(٥٥) ثانا Thana، التي يسميها البلاذري «تانه Tahnah» هي احدى المدن الساحلية المطلة على البحر العربي، بالقرب من مدينة «بومبي» الحالية في الهند، وما تزال، هذه المدينة، والواقعة شمال مدينة بومبي، الى اليوم، انظر: حوراني «العرب والملاحة في المحيط الهندي» ص: ١٧٦. وقد جانب الصواب عندما ذكر أن السند فتحت على يدي الحجاج بن يوسف الثقفي، انظر ص: ١٩٤؛ أما «بروج/ بروتش Broach فتقع في إقليم «الكجرات» على الساحل. انظر: ك. س. لال، المسلمون الأول في الهند «دلهي، ١٩٨٤م، ص: ١٢.

(٥٦) ما يتعلق بهذه السياسة التي كان يراها عمر بن الخطاب رضي الله عنه، والتي لا تحب أن يخاطر المسلمون ويركبون البحر، راجع، على سبيل المثال البلاذري «فتوح البلدان» ص: ٤٢٠ : ومسألة الغزوة البحرية للحكم بن ابي العاص الثقفي في عام ١٥هـ/ ٦٣٧م، إذ أنه عندما اخبره واليه على البحرين وقد كان عثمان بن أبي العاص بأنه قد أغزا أخاه، وركب في غزوته تلك البحر بالمسلمين، رد عمر رضي الله عنه عليه قائلا له: «يا أخا ثقيف حملت دوداً على عود وإني أحلف بالله أن لو أصيبوا لاخذت من قومك مثلهم. .» انظر البلاذري «فتوح البلدان» ص: ٤٢٠.

(٥٧) «القيقان» أراضٍ منبسطة، تقع بين «الملتان»، و«كابل»، وقد غزاها العرب المسلمون، وهي مشهورة بخيلها المعروفة بالجودة لقوتها وشدة تحملها وقد كان الطلب عليها في تزايد مستمر من هاتيك الربوع، ولأمر ما كانت أولى هدايا عبدالله هذا الى معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، البلاذري «فتوح البلدان» ص: ٤٢١؛ ابن الأثير «الكامل» جـ٣/ ٢١٨. ولمعلومات عن (القيقان) ومن كتب عنها، ووجه الاختلاف حولها، انظر: ايلليوت، ودوسون، «تاريخ الهند. .» جـ١/ ص. ص ٣٨١ ـ ٣٨٣.

(٥٨) انظر الحاشية رقم (٤٩) أعلاه.

(٥٩) كان على رأس تلك الالات منجنيق يسمى (العروس)، يقوم على ادارته والعمل عليه خمسمائة رجل. انظر: البلاذري، «فتوح البلدان»، ص: ٤٢٤، كذلك ابن الأثير (الكامل)، جـ٤/ ص١١١، ذكر اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب. «تاريخ اليعقوبي» بيروت، ١٤٠٠هـ، ص: ٢٨٨، ان ابن القاسم ظل في شيراز ستة أشهر من عام ٩٢هـ/ ٧١٠ ـ ٧١١م، للاستعداد والتهيؤ.

(٦٠) يذكر أن الجمال التي كانت تحمل الأمتعة من ذوات السنامين، وعددها حوالي ثلاثة آلاف جمل. انظر: پرساد، «تاريخ الهند. .» ص٤٤؛ اكرام، (تاريخ الحضارة) ص: ٤.

(٦١) توفي محمد بن هارون قبل أن تصل القوات الإسلامية «دِيبُل»، ودفن بالقرب من مدينة «رمائيل». البلاذري، «فتوح البلدان»، ص: ٤٢٤ اليعقوبي، «تاريخه» ص: ٢٨٨. مدينة: «أرمابيل» أو «أرمائيل» تقع على طريق مكران ـ السند، باتجاه «دِيبُل» انظر: ايلليوت، «تاريخ الهند»، جـ١/ ص. ص: ٢٦٤ ـ ٣٦٥، كذلك: الاصطخري «مسالك». ص. ص: ١٧٠ وبعدها؛ ابن حوقل، «صورة الأرض» ص. ص: ٢٢٦ ـ ٢٣٢.

(٦٢) پاثان، «تاريخ السند» جـ٣/ ص: ١٧٩.

(٦٣) لمعلومات عن «فَنّزْبُور» وهي مدينة پنجپور، عاصمة اقليم كرمان، راجعْ ايلليوت، «تاريخ الهند» جـ١/ ٣٨٩. وهي تعرف اليوم بـ «پنج گور»، انظر المقدسي، «أحسن التقاسيم» ص: ٤٧٨ وقد جعل هذا الجغرافي المسلم بلاد السند ومكران، كإقليم واحد. انظر صفحاته: ٤٧٤ ـ ٤٨٦.

(٦٤) الكوفي، «ششن نامة» ص: ١٠٢، كذلك الترجمة الانجليزية، ايلليوت، جـ١/ ص: ٤٣٦. كذلك پرساد، «تاريخ الهند. .»، ص: ٤٥؛ پاثان، «تاريخ السند» جـ٣/ ص: ١٧٩. أما ما يتعلق بكلمة (دِيبُل) أو (دِبُل) فيقول البلاذري «فتوح البلدان» ص: ٤٢٢، وعنه نقل ابن الأثير وغيره، «وكان بالديبل بد عظيم عليه دقل طويل، وعلى الدقل راية حمراء إذا هبت الريح اطافت بالمدينة، وكانت تدور والبد فيما ذكروا منارة عظيمة يتخذ في بنائهم فيه صنم أو أصنام يشهربها. وقد يكون الصنم في داخل المنارة أيضا وكل شيء أعظموه عن طريق العبادة فهو عندهم بد، والصنم

أيضا . . » ومدينة الديبل مشتقة من «ديفل» والتي تعني «معبد» وتتكون من قلعة، ومعبد وعليه قبه عالية. وهي مبنية من الصخور وذات ارتفاع عال جداً، وخاصة معبدها، وقلعتها والقبة. فجدران المعبد مبينة بارتفاع يقدر بحوالي ٣٧ متراً تقريباً، (٤٠ يادرة، ١٢٠ قدم)، وعلى المعبد تقع قبته، التي يبلغ ارتفاعها، فوق المعبد ارتفاع المعبد عن مستوى سطح الأرض، إذ يبلغ ارتفاع القبة عن مستوى سطح الأرض حوالي ٧٣ متراً (٨٠ ياردة، ٢٤٠ قدماً). انظر: لال، المسلمون الأول في الهند»، ص. ص: ١٤، ٥٠ حاشية رقم (١٠). ولمعلومات إضافية عن كلمة «بد» وعلاقتها بـ «بودا» والديانة البوذية راجع: ايلليوت، «تاريخ الهند. . .» جـ١/ ص.ص: ٥٠٤ وبعدها. والدقل هو السارية أو الخشبة الغليظة الطويلة عادة تحمل شراع السفينة الشراعية أو القارب الشراعي.

(٦٥) البلاذري (فتوح البلدان)، ص: ٤٢٤.

(٦٦) لمعلومات أكثر تفصيلاً عن كيفية استسلام «نيرون»، انظر: الكوفي، «شش نامة» الترجمة الانجليزية، ايلليوت، جـ١/ ص: ١٥٧، وهذه المدينة تقع الى الشمال الشرقي من «دِيبُل» على بعد ١٢٠ كيلاً وهي قريبة من مدينة «حيدر آباد السند» الحالية. ولمعلومات إضافية عن هذه المدينة، وما أثير حولها من اشكالات، ومداولات، منشؤها الإلباس الواقع بينها وبين مدينة ابي الريحان البيروني، انظر: ايلليوت، «تاريخ الهند» جـ١/ ص. ص: ٣٩٦ وبعدها. انظر كذلك: لال، «المسلمون الأول في الهند» ص: ١٧ انظر كذلك: اليعقوبي، «تاريخه» ص: ٢٨٩.

(٦٧) يسمى البلاذري، «فتوح البلدان» ص: ٤٢٥ رجال الدين أولئك بـ «السمنية»، وهم رجال الدين ذوي الديانة البوذية. انظر: قرشي، (تاريخ . . . .» جـ٢/ص: ٧. ومدينة «سهوان» أو «سيوستان Siwistan» تبعد عن «نيرون» بحوالي ١٣٠ كيلاً الى الشمال منها. انظر: لال «المسلمون الأول. . .» ص٧. ويسمى اليعقوبي «تاريخه. .» ص٢٨٩ هذه المدينة «سهبان» أما مدينة «سَرْبِيدَس» فيبدو لنا بأنها ليست بعيدة عن «سهوان» بدليل انها افتتحت في الفترة نفسها التي افتتحت فيها «سِهْوان».

(٦٨) لمعلومات اضافية أوفى عنه، انظر: لال «المسلمون الأول في الهند» ص: ٧.

(٦٩) الكوفي، «شش نامة» جـ١/ ص. ص: ١٥٨ ـ ١٦١ من الترجمة الانجليزية لـ: ايلليوت. كذلك لال، «المسلمون الأول في الهند»، ص١٨.

(٧٠) المصدر السابق نفسه، الصفحة نفسها.

(٧١) كانت مدينة «برهمان آباد» تعتبر عاصمة «أقليم السند السفلي» وتقع الى الشرق من «نهر السند»، والذيْ تسميه مصادرنا الإسلامية بـ «نهر مهران» غير أن اليعقوبي في «تاريخه» ص. ٢٨٩، يذكر ان مهران غير السند، بعبارة صريحة، ولعل الأمر أشكل عليه. لمعلومات عن هذه المدينة، وموقعها والاختلاف، بين من طرقها، في موقعها، انظر: ايلليوت، «تاريخ الهند» جـ١/ ص. ص: ٣٦٨ ـ ٣٧٠، ولو أن البلاذري، «فتوح البلدان» ص: ٤٢٦ حدد موقعها بحوالي فرسخين (١٣ كيلا تقريبا) من مدينة المنصورة، القريبة من مدينة «حيدر آباد السند» الحالية.

(٧٢) فيما يتعلق بمتابعة الحجاج لمسيرة فتح السند، والمراسلات بينه وبين قائد الحملة، محمد بن القاسم، يروى لنا البلاذري «فتوح البلدان» ص: ٤٢٤، رواية يستدل من خلالها على أن الحجاج كان دائما

في الصورة، وكأنه يشاهد كل حركة من تحركات جند المسلمين، سواء في حصار مدينة، أومناجزة عدو في ميدان معركة مفتوحة فيقول البلاذري: «وكانت كتب الحجاج ترد على محمد وكتب محمد ترد عليه بصفة ما قبله، واستطلاع رأيه فيما يعمل به في كل ثلاثة أيام..» راجع أيضاً توجيهات الحجاج له أثناء حصار «دِيبُل» في ص: ٤٢٥.

(٧٣) يبدو لي أن ايلليوت ودوسون «تاريخ الهند..» جـ١/ ص: ٣٦٣، قد جانبا الصواب عندما جعلا «الرور» وهي «آلور Alor» مدينة «رهري Rohri» الحالية، الواقعة في «أواسط وادي نهر السند» أي إلى الشمال البعيد عن كل من «النيرون»، التي ليست بعيدة عن مدينة «حيدر آباد السند»؛ وقد أصبحت الآن، على ما يبدو لي، جزءاً منها، و «برهمان آباد» والتي كان بها «راجا داهر» بمئآت الكيلات، فلا يعقل، أن تكون المعركة جرت عليها، لأن محمد بن القاسم رجع من منطقة مدينة «سِهْوان Sihwan» إلى الجنوب، بينما تقع الور الى الشمال، والمسافة بين (سِهْوان ودِيبُل) الواقعة على شاطىء البحر العربي، في الجنوب تساوي تقريباً، المسافة بين «سهوان» و «آلور» في الشمال. إذاً فالمعركة لا بد أن تكون قد جرت على أرض تقع بين «النيرون» في الجنوب، والتي كان قد فتحها المسلمون، وأضحت تحت حكمهم، وبين «برهان آباد» التي كانت معقلاً لـ «راجا داهر»، ومنها كان خروجه، لملاقاة جيش المسلمين، والمسافة بين المدينتين حوالي ٤٧ ميلا (٦٤ و ٥٥ كيلاً). وقد أشار، إلى ما يؤيد ذلك الاستاذ شاهپور شاه، في كلامه حول تحديد مكان «الراور» وما يؤيد هذا مجريات الأحداث؛ فلا يعقل على الإطلاق، أن «آلور» و رهرى» الحالية كانت مكاناً للمعركة المذكورة. هو ديڤالا، شاهپور شاه، «دراسات في تاريخ مسلمي الهند» وتعليقات نقدية على «تاريخ الهند» لكل من: ايلليوت، ودوسون، لاهور، ١٩٧٩م، جـ١/ ص: ٨٧.

(٧٤) لقد كان ذلك الأمير «راسل» حاكماً لقلعة كانت تعرف بـ «بايت» أو «بِتْ» Bait or Bet» وكان أحد نواب الملك «راجا داهر» وأحد قواد فصائل جيشه، حيث أوكلت اليه على ما يبدو مهمة حراسة الأماكن التي يمكن أن تكون سهلة العبور لجيش المسلمين، مخاضة أو سباحة راجع ذلك في: البلاذري، «فتوح البلدان» ص.ص: ٤٢٥ - ٤٢٦، وهناك تفاصيل أكثر عن موقف الملك «راسل» من المسلمين في، «شش نامة» للكوفي، الترجمة الانجليزية، جـ١/ ص.ص: ١٦٨ - ١٦٩.

(٧٥) لا يظهر أن يوم الخميس، الذي ذكره صاحب «شش نامة» هو يوم العاشر من رمضان، بل إن ذلك يصادف يوم الأثنين، راجع الترجمة الانجليزية جـ١/ ص: ١٧٠.

(٧٦) راجع: الكوفي، «شش نامة» ص.ص: ١٧٠ - ١٧٥، الترجمة الانجليزية لـ: ايلليوت «تاريخ الهند» جـ١/ ص.ص١٦٥ - ١٧٠؛ البلاذري، «فتوح البلدان» ص.ص: ٤٢٥ - ٤٢٦؛ اليعقوبي، «تاريخ اليعقوبي» ص: ٢٨٩. وهنا يذكر أن أهل «الراور» هم الذين رفضوا الاستسلام إلا بعد أن أخرج لهم محمد بن القاسم زوجة داهر، فأقنعتهم أن الملك قد قتل، وليس عند مدينة «الور» كما ورد ذلك عند الكوفي، «شش نامة» الترجمة الانجليزية جـ١/ ص: ١٩٢، انظر حاشية رقم (٨٩). ولعل اليعقوبي كان يقصد «آلور» وليس «الرور» انظر كذلك من المراجع الحديثة: «باثان» الذي اعتمد في ذلك على المصدر الأول حيث فصل المعركة يوما فيوماً، طبقا لما جاء في «شش نامة»، تاريخ السند».. جـ٣/ ص.ص١٨٣ - ١٨٦، پرساد، «تاريخ الهند...»،

ص.ص: ٤٥ ـ ٤٦، لال «المسلمين الأول. . .»، ص.ص: ١٩ ـ ٢٠ وقد ذكر هذا الأخير ان تعداد الفرسان في جيش «داهر» بلغوا خمسين ألفا ربما كان يقصد جيش داهر كان خمسين ألف رجل في مجموعة «اكرام» «تاريخ الحضارة. .»، ص: ٥ انظر كذلك حاشية رقم (٩٠) تحت.

(٧٧) انظر: الكوفي «شش نامة» الترجمة الانجليزية، جـ١ ص.ص ١٧١ ـ ١٩٤. وقد اورد اسم المرأة أحيانا (راني ماين) Rani Main. وكذلك يسمى الابن (جاي سيا Jaisiya جيسيه).

(٧٨) راجع التفاصيل في: الكوفي، «شش نامة» الترجمة الانجليزية جـ١/ ص.ص: ١٧١ ـ ١٧٢. انظر كذلك البلاذري «فتوح البلدان»، ص: ٤٢٦.

(٧٩) الترجمة الانجليزية، جـ١/ ص.ص: ١٧٤ ـ ١٧٥، حيث يذكر صاحب هذا المصنف، أن المسافة التي تفصل بين «برهمان آباد» و «هليلا» أو «دهليله» فرسخ واحد فقط أي حوالي ٤ أميال (٦,٤٤ كيلا تقريباً) أما «بهرور» فإنها ليست، كما يظهر، بعيدة عن «دهليلا» حيث لم أجد في مصادر مادتي ما يحدد مكانها، ويبدو لنا، بأنها ليست «بغرور» التي أشار اليها البلاذري «فتوح البلدان» ص٤٢٦.

(٨٠) لقد أورد مصنف كتاب «شش نامة». الترجمة الانجليزية جـ١/ ص: ١٧٦، معلومات وافية، في هذا الخصوص، لا توجد في أي مصدر آخر، وخاصة في مصادرنا التي الفت باللغة العربية.

(٨١) يظهر لنا أن النساء المسلمات اللائي أسرهن القراصنة البحارة الهنود، وأخذن الى «دِيْبُل» حيث كان أسرهن أمراً عجَّل بفتح بلاد السند، كن تحت حراسة هذا الوزير واشرافه، أثناء احتجازهن لدى الملك، «داهر». لذلك تقرب ذلك الوزير بهن الى القائد المسلم محمد، وطلب الحماية كما تذكر هذه الرواية. راجع الكوفي «شش نامة»، الترجمة الانجليزية، جـ١ ص: ١٧٥.

(٨٢) الترجمة الانجليزية، جـ١/ ص.ص: ١٧٥ ـ ١٧٦.

(٨٣) فيما يتعلق بنداءات «جاي سينغ» وخطاباته الى اخوانه والى امراء المناطق، راجع الكوفي «شش نامة» الترجمة الانجليزية، جـ١ ص: ١٧٤.

(٨٤) راجع في هذا الخصوص: الكوفي «شش نامة» الترجمة الانجليزية، جـ١ ص.ص١٧٧ وبعدها؛ البلاذري، «فتوح البلدان» ص: ٤٢٦؛ ابن الأثير «الكامل في التاريخ» جـ٤/ ص:١١٢؛ اليعقوبي، «تاريخه» ص: ٢٨٨. هوديفالا، «دراسات نقدية. .» جـ١/ ص: ٩٣ ـ ٩٤.

(٨٥) تقع مدينة «الور Alor» وهي «رهري Rohri» الحالية على الضفة الشرقية لنهر «مهران» وهو نهر السند المعروف، في منتصف المسافة تقريباً بين «دِيبُل» على شاطىء البحر العربي، ومدينة «الملتان» في وسط وادي السند، والمسافة بين المدينتين الأخيرتين حوالي ٩٠٠ كيلاً، تقل أو تزيد قليلاً. انظر: پاثان، «تاريخ السند» جـ٣/ ص: ١٩٠، لال، «المسلمون الأول. . .» ص:٢٦.

(٨٦) يذكر مصنف «شش نامة» ترجمة ايلليوت ودوسون، جـ١/ ص١٩٠، وعنه نقل كل من جاء بعده، أن محمد بن القاسم غادر «برهمان آباد» يوم الخميس الثالث من شهر محرم عام ٩٤هـ/ الموافق لـ ٩ تشرين الأول/ اكتوبر، عام ٧١٢م، وهذا خطأ على ما أظن، لأن الثالث من الشهر المذكور من هذا العام ليس يوم الخميس، وإنما يصادف يوم الأحد. وإذا تمشينا مع ما نعتقد أنه هو الصحيح، وأن العام المقصود هو العام التالي «٩٥هـ/ ٧١٣م» فإن اليوم الذي غادر فيه محمد «برهمان آباد» هو فعلاً يوم الخميس الثالث من محرم عام ٩٥هـ/ ٢٨ أيلول/ سبتمبر سنة ٧١٣م، وليس العام

♦ السابق، وهنا رجع هوديفالا في (دراسات. . . . ،) جـ١ / ص: ٩٦ الى هذا القول، مناقضاً بذلك نفسه في جـ١ / ص: ٩٣ حيث قال في هذه الصفحة إن اليوم الصحيح الذي قتل فيه «داهر» هو العاشر من رمضان عام ٩٢هـ وهذا بطبيعة الحال خطأ، لأن «داهر» بموجب حساباتنا قتل في العام التالي، وهو عام ٩٣هـ.

(٨٧) «ساوندي» أو «ساوندسي» أو «ساوندر»، راجع في ذلك: ايلليوت، «تاريخ الهند. . . .» جـ١ / ص.ص ١٥٠، ١٩٠ كذلك: البلاذري، «فتوح البلدان»، ص: ٤٢٦. ولا أظن أن هوديفالا، «دراسات. . .»، جـ١ / ص: ٩٦، مصيب، عندما ذكر أن هذه المنطقة تقع جنوب مدينة «برهمان آباد» بحوالي أربعة أميال، لأن الجيش متجه شمالاً لا جنوباً فلا بد إذا ان تكون شمال «برهمان آباد» وليس جنوبها.

(٨٨) لمعلومات عن سير الحملة وكيفية استقبال مواطني «وادي السند» لمحمد بن القاسم وجيشه، حتى وصلوا «الور Alor» راجع تفاصيل ذلك في مصنف الكوفي «شش نامة» ترجمة ايلليوت ودوسون الانجليزية جـ١ / ص.ص: ٩٠ - ١٩٢.

(٨٩) يسمى مصنف «شش نامة» جـ١ / ص: ١٩٢ ذلك الابن (كوفي) و (فوفي) عند لال، «المسلمون الأول. . .» ص: ٢٥، كذلك پرساد، (تاريخ الهند. . .) ص٤٨٠، أما پاثان، (تاريخ السند. . .) ص: ١٩٠ فيسميه گوپي Gopi.

(٩٠) وتدعى «لادي Ladi»، الكوفي، «شش نامة» ترجمة ايلليوت ودوسون، جـ١ / ص: ١٩٢. راجع كذلك حاشية رقم (٧٦) أعلاه.

(٩١) راجع تفاصيل ذلك في المصدر السابق، جـ١ / ص.ص١٩٢ - ١٩٧. أما المعلومات التي أوردها البلاذري، (فتوح البلدان)، ص ٤٢٦ وغيره من المصادر العربية الأولى فإنها هزيلة، إذا ما قورنت بما جاء في هذا المصدر المهم.

(٩٢) لمعلومات اضافية في هذا الخصوص، راجع: لال، «المسلمون الأول. . .» ص: ٢٥، پرساد، «تايخ الهند. .» ص.ص: ٤٨ - ٤٩.

(٩٣) الكوفي، «شش نامة» الترجمة الانجليزية، جـ/ ١/ ص: ٢٠٢.

(٩٤) المصدر السابق، جـ١ / ص: ٢٠٣. فيما يتعلق بحسن سياسة ابن القاسم راجع في ذلك: قرشي، (تاريخ باكستان. . .)، جـ٢/ ص:١٢.

* انظر الحاشية رقم (٩٧) تحت.

(٩٥) الأشهر، محرم، وصفر، وربيع الأول من عام ٩٥هـ/ تشرين الأول والثاني وكانون الأول، اكتوبر، نوفمبر، ديسمبر من سنة ٧١٣م.

(٩٦) ربيع الثاني، وجماد الأول، وجماد الثاني، من نفس العام المذكور سابقاً في حاشية (٩٥)، والموافقة لثلاثة الأشهر الميلادية من أول عام ٧١٤م.

(٩٧) عن مدينة «الملتان» راجع: المعاجم الجغرافية الواردة في الحاشية رقم (٣٠) وإن كان كلام مصنفيها عائماً ومكرراً. فقد أوردها المقدسي، «أحسن التقاسيم» في ص.ص: ٤٨٠ - ٤٨١. وابن حوقل «صورة الأرض» في ص.ص ٢٧٧ - ٢٧٨ وغيرهما. إلا أن پاثان، «تاريخ السند. . .»، جـ٣/ ص.ص: ٣٧١ وبعدها أورد معلومات طيبة عنها.

(٩٨) لمعلومات عن تاريخ «الملتان» القديم، انظر پاثان، «تاريخ السند. . .» ص. ص: ٣٧٢ ـ ٣٧٣.
(٩٩) راجع في ذلك: قرشي، (تاريخ باكستان)، جـ٢/ ص:١٢.
(١٠٠) تقع هذه المدينة على نهر «بياس Biyas» في أقليم «البنجاب» السفلي، في دولة الباكستان الحالية. راجع المرجع السابق، الصفحة نفسها.
(١٠١) راجع في هذا الشان، مصنف الكوفي، «شش نامة» ترجمة ايلليوت، جـ١/ ص.ص: ٢٠٣ ـ ٢٠٤، البلاذري، «فتوح البلدان» ص: ٤٢٧، انظر أيضا، ابن الأثير، «الكامل في التاريخ» جـ٤/ ص:١١٢.
(١٠٢) البلاذري، «فتوح البلدان» ص: ٤٢٧.
(١٠٣) جـ١/ ص٢٠٤.
(١٠٤) جـ١/ ص.ص: ٢٠٤ ـ ٢٠٥.
(١٠٥) البلاذري «فتوح البلدان» ص: ٤٢٧.
(١٠٦) المصدر السابق، ص.ص: ٤٢٧ ـ ٤٢٨، وغيره ممن نقل عنه، كابن الأثير. «الكامل في التاريخ»، جـ٤/ ص.ص: ١٠٢، ١٣٣ ـ ١٣٤.
(١٠٧) ربما أن المصنف كان يقصد بالأنهار الخمسة: «نهر بياس Biyas» ويعتبر رافدا رئيسياً لـ «نهر سُتْلِجْ Sutlej»، والثالث «نهر راڤي Ravi»، و «نهر چناب Chenab»، و «نهر جِهْلُم Jhelum» من الشرق الى الغرب على التوالي، والتي تكون جميعها مجرى نهر السند الكبير. وقد ورد ذكر الأنهار الخمسة هذه عند ابن بطوطة «رحلته. . .» جـ٢/ ص: ٤٤٨ باسم «پنج آب» أو «المياه الخمسة».
(١٠٨) يذكر هذا المصنف، «شش نامة» الترجمة الانجليزية، جـ١/ ص:٢٠٧، ان والد «داهر»، وهو چش بن سلايج» (١ ـ ٤٦هـ/ ٦٢٢ ـ ٦٦٦م) كان قد وضع معالم تلك الحدود، وذلك بزراعة أشجار التنوب والحور، لتكون الحد الفاصل بين ذينك الاقليمين.
(١٠٩) اكرام، «تاريخ الحضارة. . .»، ص.ص: ٥ ـ ٦.
(١١٠) البلاذري، «فتوح البلدان» ص: ٤٢٨، فيما يتعلق بنهاية هذا القائد، راجع هذا المصدر، الصفحة نفسها أما القصة التي أوردها مصنف «شش نامة» الترجمة الانجليزية، جـ١/ ص.ص: ٢٠٩ ـ ٢١١ فلا شك أنها قصة خيالية، وتُرّهات لا أساس لها من الصحة. وقد أوردها مؤرخون جاءوا فيها بعد فنقلوا عن هذا المصنف، مثل، فريشتا (تاريخ. .) جـ٤/ :ه ٢٣٩ وغيره. ولعل منشأ هذه القصة في مصنف الكوفي، ان كان صادقاً، من أن كتابه هذا ترجمة من مصنف باللغة العربية، وهو معاصر لأحداث فتوحات ابن القاسم في السند، أن ذلك المصنف العربي وهو مقيم بارض السند، قد أخذه الذهول، ولم يفهم سر استدعاء محمد بن القاسم، وهو مكبل في الأغلال، مع بلائه في فتوحات السند، بسرعة، وبهذه الكيفية، وأخذ منه ذلك التصرف، من قبل الخليفة في دمشق، كل مأخذ. لذلك، هداه تفكيره، وربما أن ذلك قد شاع في أوساط الناس في أرض السند آنذاك، الى الربط بين هذه الحادثة، وهي استدعاء ابن القاسم على هذه الصورة، وبين ارسال بنات الملك «داهر» الى العراق، ومن ثم الى الخليفة، في دمشق وانهن كن المتسببات في استدعاء ابن القاسم، وقتله فيا بعد.

(١١١) البلاذري «فتوح البلدان» ص. ص: ٤٢٩ وبعدها، لمعلومات إضافية عن هذا الخليفة، الصالح ان شاء الله، راجع سيرته في: سيرة عمر بن عبدالعزيز «لأبي محمد عبدالله بن عبدالحكم، ت: ٢١٤هـ، تحقيق أحمد عبيد، بيروت، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.

(١١٢) تقع مدينة «المحفوظة» بالقرب من مدينة «برهمان آباد» وعلى مرأى منها، والى الشمال الشرقي من مدينة «حيدرآباد» الحالية، وعلى بعد ٦٤ كيلاً (٤٠ ميلاً) منها، وقد بناها الحكم بن عوام الكلبي أما مدينة المنصورة التي بناها عمرو بن محمد بن القاسم الثقفي، فتقع على بعد ١٣ كيلا (٨ أميال) تقريباً من مدينة «برهمان آباد» راجع في هذا الخصوص: المعاجم الجغرافية الإسلامية، تحت اسم المنصورة بأرض السند، مثل القزويني في «نزهة القلوب»، ومجهول المؤلف «حدود العالم»، وياقوت الحموي، في معجمه، ولم يأت جديد في هذه المصادر بمعلومات ذات بال عن هذه المدينة، إلا أن الأخير قد أورد، نقلاً عن المسعودي، القول بأن منصور بن جمهور الحميري، وهو آخر أمراء بني أمية هو الذي بناها. وهذا على ما يبدو خطأ، فالذي بناها، كما ذكر ذلك البلاذري، عمرو بن محمد بن القاسم. وهذه اشارة سبقنا إليها ايلليوت، «تاريخ الهند...» جـ١/ ص: ٣٧٤ حاشية قرم (١) راجع أيضا، هذا المصدر، «شش نامة» الترجمة الانجليزية، جـ١/ ص. ص: ٣٧١ وبعدها، وكذلك: هو ديفالا، «دراسات...». جـ١/ص: ١٨ من مقدمته.

(١١٣) انظر: البلاذري «فتوح البلدان» ص.ص: ٤٢٩ - ٤٣٣، معصومي، مير محمد، «تاريخي معصومي» الفصلين الأول والثاني؛ الكوفي، «شش نامة» الترجمة الانجليزية، ايلليوت «تاريخ الهند...»، جـ١ ص. ص: ٢٠٤ وبعدها، ومن المراجع الحديثة: پاثان، «تاريخ السند...» جـ٣/ ص. ص: ٢٠٤ وبعدها، لال، «المسلمون الأول...» ص. ص: ٢٦ - ٢٧، اكرام، «تاريخ الحضارة...»، ص. ص: ١٤-١٦؛ پرساد، «تاريخ الهند» ص: ٥٠ وبعدها.

(١١٤) الحاشية السابقة نفسها، ومصادرها نفسها ومراجعها.